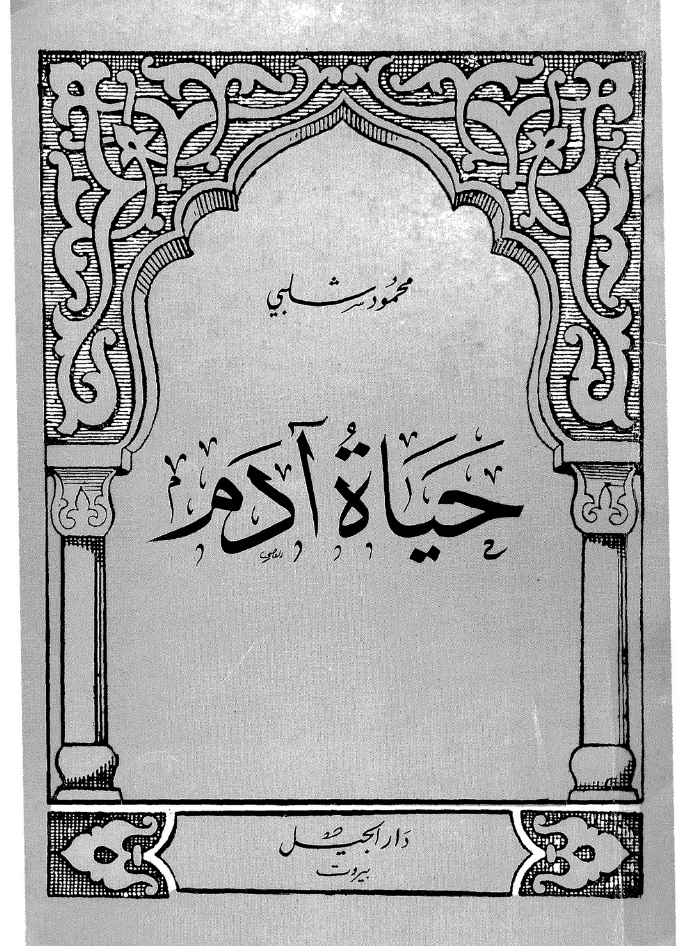


محمود شلبي
حياة آدم
دار الجيل
بيروت

محمود شلبي



حياة آدم

دار الجيل
بيروت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد : فإن هذه سلسلة ذهبية ، يدور موضوعها فى سرد حياة الرسل والأنبياء ، فى أسلوب سهل ممتنع ، ونمط أخاذ جذاب ، وطريقة فيها قوة الحق ، وصفاء الصدق ، ونقاء الطهر ، ولذة التقرب إلى الله ، وجمال مصاحبة المرسلين والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

وقد أوحى إلىّ أن أقوم بهذا العمل ، أنه كان يدور فى صدرى منذ حين ، وكنت أؤجله حتى أتم فى نفسى أدوات الموضوع . حتى كان الوقت المعلوم . فبدأت أفكر فى سرد قصص الأنبياء على الناس . ثم راودنى خاطر القلق فى حيرة . هل أضع هذا القصص فى أسلوب يناسب الأطفال أم فى أسلوب يناسب الكبار ؟ . هل أجعله قصصا للأطفال أم قصصا للجميع ، صغارا وكبارا ، نساء ورجالا .

وبدء الأمر يتجمع فى رأسى ، وبدأت أفكارى تذهب المذاهب ، وكانت تعود إلىّ تحمل اتجاهات مضطربة متضادة ، فأزداد حيرة على حيرة .

وكان أشد الأفكار إحداثا لهذا الاضطراب هو على أى طريقة أسير ؟ فى طول مُمل أو فى قصر مُخل ؟ . فى أسلوب التمثيلية أو فى أسلوب القصة ؟ . فى أسلوب السينما أو فى أسلوب الإذاعة ؟ . فى أسلوب الوعظ أو فى أسلوب العلم ؟ . ولم أستطع أن أفاضل بين أى من هذه الأساليب ، فلكل منها رواده ومزاياه . إذاً ما المخرج ؟ . وشرعت أكتبّ نماذج لكل أسلوب ، فيزيدنى الأمر حيرة ، عندما أجد أن فى هذا من الجمال ما فى هذا أو يزيد . وأخيرا ، وبعد جهد شاق ، وتجارب عقلية مريرة استقر رأيى أن أسلك به هذه الطريقة ، التى كان عليها هذا الكتاب ، والتى أنوى ـ إن شاء الله ـ أن تكون عليها سائر السلسلة .

وهذه الطريقة تجمع من العلم صدقه ، ومن النصوص جلالها ، ومن القصة طريقتها ، ومن السينما مشاهدها المتتابعة ، ومن الإذاعة تصويرها ، ومن التمثيل ما يذكر فيه من محاورات . وبذلت جهدى أن يكون شيئا لا يعلو على العوام ولا يهبط بالخواص ولكن بين بين .

ولما كان الأمر يتعلق بوحى السماء ، وأن الكذب على الله وعلى رسوله هو أقبح أنواع الإجرام ، ويعرض فاعله لأشد العذاب . لذلك لم أشأ أن أقدم بين يدى الله ورسوله رأيى ، وجعلت كلمة الله هى العليا ، هى المرجع الأول ، ثم كلمة رسوله من بعد ذلك ، ثم آراء أئمة هذا الدين ، ثم فى الذيل من بعد ذلك رأيى ، إن كان يصح أن يذكر ، إلى جوار النصوص المكرمة ، وآراء الأئمة الأعلام .

ولتجدن فى هذا الكتاب قصة « آدم وحواء » قصة « أبو الخلق » و« أبو البشر » مفصلة تفصيلا ، تسعى إليك فى صدق وصفاء . ولن تجد فيها أثراً للأكاذيب التى ألصقت بقصص الأنبياء والرسل كذبا وزورا . ولا تعمقا مما أودى بكثير منا إلى مهاوى الشطط والبعد عن جمال الظاهر الذى أمرنا أن نحكم به دائما . ولا جدلا مضلا مما تعود الكثير أن يصولوا ويقولوا ويجولوا فيه . ولكن تجد فيه نور الحق ويقين الصدق ، وجمال الكمال ، وكمال الجمال . كل أولئك كان من توفيق الله ، ومن النور الذى يتلألأ دائما ويشرق أبدا على كل من اتصل به . . نور القرآن العظيم ، ونور السنة البيضاء .

وحياة آدم وحواء هى حياة كل ذكر وكل أنثى على السواء . ليست حياتهما الخاصة وحدهما ، ولكن حياة الجميع ، لأننا جميعاً منهما . من سلالتهما . نحمل خصائصهما . نحمل فى تكويننا صفاتهما المادية والروحية . نحن جميعا أوراق فى شجرة الحياة التى أصلها آدم وحواء . نحن جميعا مَن سبقوا ومن لحقوا نكوّن شجرة واحدة . هى الآدمية ، هى البشرية ، هى صورة مكررة من آدم وحواء .

من أجل ذلك بدأت بهما هذه السلسلة المباركة . وأرجو أن أتبعها بحياة الأنبياء جميعاً إن شاء الله .

محمود شلبى

قبلَ خلقِ السماواتِ والأرضِ
بخمسينَ ألف سنة

لم يكن هناك أرض . لم يكن هناك سماء . وكان هناك شيء واحد ... هو الماء ..
وكان عرشُ الرحمنِ على الماءِ ، الماءُ الذى هو أصلُ كل شيء .

قال تعالى « ... وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ... » (هود ٧) .

وقال « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء ٣٠) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ... كَانَ اللهُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فى الذِّكْرِ كل شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ ... » (البخارى) .

وأولُ ما خلقَ اللهَ القلمَ وقال لَهُ : أكتب. فقال : ما أكتب ؟ . قال: أكتبِ القَدَرَ ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

« ... إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ ، فقال : اكْتُبْ ، فَقَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ ، قَالَ : اكْتُبِ الْقَدَرَ ، مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ ، إِلَى الْأَبَدِ » (الترمذى) .

وقَبلَ أنَ يخلُقَ اللهُ السَماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنة [1] كتب مقاديرَ الخلائق ، ومن بينها قَدَرَ آدمَ وقصته وما سيكونُ من خلقِه وحياتِه وموتِه وبعثه . شأنَهُ شأنَ كل شيءٍ سيكون .

---

(١) المقصود بالسنة هنا ، فترة من الزمن ، لا السنة الشمسية المعهودة .

قال تعالى « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » (القمر ٤٩) .

أى أنه تعالى قدر مقاديرَ كل شىء قبل أن يخلُقَه ، وسجل ذلك فى أم الكتاب وما آدَمُ عليه السلامُ إلا أحد هذه الأشياء .

عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ — قَالَ — وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ (مسلم) .

والمرادُ تحديدِ وقتِ الكتابةِ فى اللوح المحفوظِ أو غيرِه لا أصلِ التقدير فإن ذلك أزلى لا أول لهَ .

وعَنْ أبِى هُرَيْرَةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : تَحَاجَّ آدَم وَمُوسَى ، فَحَجَ آدَمُ مُوسَى ، فَقَالَ لَهُ موسَى : أنْتَ آدَم الَّذِى أغْوَيْتَ النَّاسَ ، وَأخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أنْتَ الَّذِى أعْطَاهُ اللهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاصْطَفَاهُ علَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ ؟ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَتَلُومُنِى عَلَى أمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ أخلقَ ؟ !
(مسلم) .

« فحج آدمُ موسى » أى غلبه بالحجة وظهر عليه بها . ومعنى كلام آدمَ أنك يا موسى تعلمُ أنْ هذا كُتب علَيَّ قبلَ أن أخلَقَ ، وقدِّرَ علَيَّ ، فلا بُدَّ مِنْ وُقُوعِه ، ولو حرَصْتُ أنَا والخلائقُ أجمعونَ على ردِّ مثقالِ ذرةٍ منهُ لم نقدرْ ، فلِمَ تلومُنِى عل ذلك ؟ ! .

خلق السماوات والأرض

وبعدَ كتابةِ القدرِ بخمسينَ ألفَ سنة خلقَ اللهُ تعالى السماواتِ والأرض . من الماءِ الذى تحتَ العرشِ خلقَ اللهُ السماواتِ السبع ومنَ الأرض مثلهنْ . وكانت السماواتُ والأرض فى البدايةِ قطعةً واحدة ثم فصلهما الله .

قال تعالى « أوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمَاوَات والأرْضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ... » (الأنبياء ٣٠) .

« كانتا رتقاً ففتقناهما » أى كانتا شيئاً واحداً مُلتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما ورفعَ السماءَ وَأقرَّ الأرض .

وقال « قل أئِنَّكُمْ لَتَكفرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أنْدَاداً ذلكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنَ فوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أقْوَاتَهَا فى أرْبَعَةِ أيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إلىَ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وللأرْضِ ائتيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات فِى يَوْمَينِ وَأوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَلِيمِ » . (فصلت ٩ : ١٢) .

« قل أئنكم لتكفرونَ بالذى خلقَ الأرضَ » كيف تكفرون بالله وهو الذى أوجد الأرض ؟

« فى يومين » فى وقتين ، المراد باليوم ههنا الوقتُ مطلقا .

« وتجعلون له أندادا » أكْفَاءً من الملائكة والجنّ وغيرهم . والحالُ أنه لا يمكنُ أن يكونَ لهُ سبحانه ندٌّ واحد . « ذلكَ ربُّ العالمين » ذلك العظيم الشأن الذى

فعل ماذكرَ فى مدةٍ يسيرةٍ ، خالقُ جميعِ الموجوداتِ ومُربيها دُونَ الأرضِ خاصةً فكيفَ يُتصورُ أنْ يكونَ شَىء من مخلوقاته نداً له عزّ وجلّ ؟ .

« وجعل فيها رَوَاسِى » وابدع فى الأرض جِبَالاً وأرْسَاهاً وَثَبَّتَها على وجهها .

« من فوقها » على سَطْحها .

« وبَارَكَ فِيها » وكثر خيرَها ، وقدَّرَ أن يكْثر خيرها بأن يكثر فيها أنواعُ النباتات والحيوانات .

« وقدَّر فيها أقواتَها » وبينَ كميتَها وأقدارَها ، وخصَّ كُلَّ إقليمٍ من الملابس والمطاعم والنباتاتِ ليكونَ الناسُ محتاجينَ بعضُهم لبعضٍ وهو مقتضٍ لعمارةِ الأرضِ وانتظامِ أمورِ العالم .

« فى أربعة أيام » فى أربعةِ أوقات ، فى أربعة أزمنة فى أربعة أيام

« سواءً » لا نُقصانَ فيها ولا زيادة .

« للسائلين » هذا الحصرُ فى أربعةٍ كائنٌ للسائلينَ عن مُــدةِ خلق الأرْض ومَا فيها . أو قدَّرَ فيها أقواتَها لأجلِ الطالبينَ لها المحتاجينَ إليها من المقْتاتين . أو مستويةً مُهيأةً للمُحتاجينَ .

« ثم استوى إلى السماءِ » قصَدَ إليهَا وتوجَّهَ دونَ إرادةِ تأثير فى غيرها، ثم استوى إلى خلق السماء .

« وهى دُخَانٌ » يراد به مادتها التى منهَا ترَكبتْ لا الدخانُ الذى يرتفع مِنَ النارِ .

« فقَالَ لهَا وللأرضِ ائتيا » بما خلقت فيكُما من المنافعِ . فليس المعنى على إتيان ذاتِهما وإيجادهما بل إتيانِ ما فيهما مِمَّا ذُكرَ بمعنى إظهارِه والأمرُ للتسْخير . وذلكَ للتمثيل للدلالة على أنَّ السماء والأرضَ محلاً قُدْرَتِهِ تعالى يتصرفُ فيهما كيفَ يشاءُ إيجاداً وإكمالاً ذاتاً وصفة .

« طَوْعاً أوْ كَرْهاً » تمثيلاً لتحتّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلكَ لا إثباتِ الطوع والكُرهِ لهُما .

« قالتا أتينا طائعين » مُنقادين . تمثيلاً لكمالِ تأثرهما عن القُدرةِ الربّانيةِ وحُصُولهما كما أُمرا به وتصويراً لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مُقتَضى الحكمةِ البالغةِ .

« فقضاهن سَبْعَ سماواتٍ فى يَوْمَيْن » خلقهُن خَلْقاً إبداعيًّا وأتقنَ أمرَهن حسْبَما تقتضيهِ الحكمْةُ فى وَقتَيْن .

« وأَوْحَى فى كل سماءٍ أمرَها » خلقَ فى كُلّ منْها ما استعدتْ لَهُ واقتَضتْ الحكمَةُ أن يكونَ فيهامن الملائكةِ والنيراتِ وغيْر ذلكَ مما لا يعلمُه إلا الله . أو أوْحَى إلى أهلِ كلٍ منها أوامِرَه وكلفهُم ما يليقُ بهمْ من التكاليف .

« وزيّنا السّماءَ الدُّنْيًا بمصابيح » أى من الكواكبِ وهيَ وإن تفاوتتْ فى الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيهِ الظاهر ، أو بعضها فيها وبعضها فيما فوقها لكنها لكونِها كُلها تُرى مُتلألئةً عليها صحّ كونُ تزيينها بها .

« وحفظا » وحفظناها حفظا من الآفاتِ أو منَ الشياطين المسترقةِ للسمع .

« ذلك » الذى ذُكرَ بتفصيله أى ذلك المذكور ...

« تقديرُ العزيزِ العليم » البالغِ فى القدرة والبالغ فى العلم .

متى خلق آدم ؟

خلق الله الأرض فى ستة أيام ، فى ستة أوقات متساويات ، فى ستة أزمنة ، لأن يوماً عند ربك غير الأيام المعلومة لنا فى هذه الحياة الدنيا . وقد سمى الله القيامة بما فيها من أزمنة طويلة وأطوار عجيبة « يوما » .

فهو « اليوم الآخرُ » وهو « يوم القيامة » .

فى يوم السبت ، أى فى المدة الأولى ، فى الطور الأول . خلق الله التربة أى الأرض الخام الأولى .

وفى يوم الأحد ، أى فى الطور الثانى ، خلق الله تعالى الجبالَ .

وفى يوم الإثنين ، أى فى الطور الثالث ، خلق الله تعالى الشجر ، أى كل ما ينبت على الأرض من الشجر .

وفى يوم الثلاثاء ، أى فى الطور الرابع ، خلق الله تعالى « المكروه » وهو ما يقوم به المعاش ويصلح به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض .

وفى يوم الأربعاء ، أى فى الطور الخامس ، خلق الله تعالى « النون » أى الحيتان أى الأسماك والحيوانات البحرية .

وفى يوم الخميس ، أى فى الطور السادس ، خلق الله الدوابَّ ، وهو كُلُّ ما يدبُّ على الأرض ، من طيرٍ وحيوان .

وهنا كَمُلَ خَلقُ الأرضِ ، بجبالها ، وشجرِها ، ومعادنِها ، وأسماكِها ، وطيرِها ، وحيوانِها .

وفى يوم الجُمُعَةِ ، أىْ فى الطَورِ السابعْ ، فى آخرِ الخلق ، فى آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجُمُعَةِ خَلَقَ الله تعالىَ آدمَ عليهِ السَّلام .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِى فَقَالَ : خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المكروهْ يَوْمَ الثَّلاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ ، وَبَث فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ

الخميس ، وَخلَقَ آدَمَ — عَلَيْهِ السَّلامُ — بَعْدَ الْعَصْرِ ، مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ ، فِى آخِرِ الخَلْقِ ، فِى آخِرِ سَاعَةٍ ، مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ ، فِيما بَيْنَ الْعَصْرِ إلى الليْلِ . (مسلم) .

« وخلق النور يوم الاربعاء » كذا هو فى صحيح مُسلم النورُ بالراء وروايات ثابتِ بن قاسم « النون » بالنونِ فى آخره ، وكذا رواه بعضُ رواةِ صحيح مُسلِم وهو الحُوتُ (نقلا عن شرح النووى) .

وعَن أبِى هُرَيْرَةَ ، أنَّ النَّبِىَّ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْه الشَمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أدْخِلَ الجَنَّةِ ، وَفِيهِ أخْرِجَ مِنْهَا ، وَلا تَقُومَ السَّاعَةُ إلاَّ فِى يَوْمِ الجُمُعَةِ . (مسلم) .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

أكمل الله عز وجل خلق الأرض ، وبارك ، فيها ، وقدر فيها أقواتها.

جبالها شاهقة سامقة ، وأمطارها نازلة ، وأنهارها جارية ، وأشجارها نامية ، وأطيارها تعلو إلى السماء وتهوى إلى الأرض ، وحيوانها يجرى فى نواحيها .

لمن كل هذا ؟ . وما الغاية من ورله هذا الإعداد ؟ .

لماذا خلق الله التربة ، ثم الجبال ، ثم الشجر ، ثم المعادن ، ثم الأسماك ، ثم الطير والحيوان ؟ .

لابد إذاً من مخلوق يسود سيادة مباشرة على هذا كله ، مخلوق فيه من صفات هذه الأرض ليستطيع أن يتفاعل مع ما فيها ، وفيه من صفات الله ليستطيع أن يتلقى عنه سبحانه ، ليستطيع أن يسود عليها ، ويتوب عن الله فيها . لابد إذا من خليفة ،

من نائب ينوب عن الله فى الأرض .

من أجل ذلك اتجهت إرادة الله تعالى إلى خلق هذا الخليفة .

وبشر سبحانه الملائكة أجمعين ، بالنبأ العظيم وقال لهم « ... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... » (البقرة ٣٠) .

« إنى جاعل فى الأرض خليفة » أى أنه خليفة الله تعالى فى أرضه ، وكذا كل نبى ، استخلفهم فى عمارة الأرض ، وسياسة الناس . وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليه ، لما أنه فى غاية الكدورة والظلمة الجسمانية ، وذاته تعالى فى غاية التقدس . والمناسبة شرط فى قبول الفيض على ما جرت به العادة الإلهية ، فلا بد من متوسط ذى جهتى تجرد وتعلق ، ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى .

ونبأهم الله تعالى عن آدم ، وأخبرهم أنه سيكون من طين ليناسب الأرض التى أخذ منها ، وأنه سبحانه سيترك هذا الطين حتى يتغير ، ثم يخلقه منه ، ثم يتركه حتى يجف ، وأنه سبحانه سينفخ فيه من روحه ، فإذا تم النفخ فإن عليهم جميعاً أن يسجدوا له ، تشريفا لما فيه من روح إلهى .

وأخبرهم سبحانه أن هذا المخلوق سيخلف بعضه بعضا فى الأرض عن طريق التناسل ، وسيكون من ذريته من يفسد فيها ويسفك الدماء ويملأها شرا ، ومنها من يصلح فيها ويطيع الله ويملأها خيرا . نبأهم سبحانه بآدم وما سيكون من شأنه فى الأرض ، وعادات بنيه من بعده .

قال تعالى « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . (الحجر ٢٨ : ٢٩) .

« وإذ قال ربك للملائكة » المراد بهم ملائكة السماء والأرض .

« إنى خالق » فيما سيأتى ، وفيه من الدلالة على أنه تعالى فاعل لذلك البتة من غير صارف ولا عاطف .

« بشرا » جسما كثيفا ، يلاقى ويباشر ، إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت .

« من صلصال » من طين يابس يصلصل أى يصوت إذا نقر . وقيل : هو من صلصل إذ أنتن تضعيف صل يقال : صل اللحم وأصل إذا أنتن .

« من حمإ » من طين تغير واسود من مجاورة الماء ويقال للواحدة حمأة . أى من صلصال كائن من حمإ .

« مسنون » أى مصور . وقيل المسنون المنتن . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صوت ، ثم غيره طورا بعد طور ، حتى نفخ فيه من روحه .

« فإذا سويته » فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية .

« ونفخت فيه من روحى » المراد هنا تمثيل إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها .

« فقعوا له ساجدين » أمر للملائكة عليهم السلام بالسجود لآدم عليه السلام على وجه التحية والتعظيم .

وشاع الخبر وذاع فى أهل السماء . أن الله سيخلق مخلوقا ينوب عنه فى الأرض ، ويخلف بعضه بعضا فيها عن طريق التناسل .

الملأ الأعلى يختصم

وكان النبأ العظيم فتنة وبلاء للملائكة أجمعين . واختصموا فيما بينهم وتجادلوا فى الأمر ، وعجبوا من أمره الذى يريده .

قال تعالى « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ

مُبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن طِين. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ من رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . (ص ٦٧ : ٧٢) .

« قل هو » ما أنبأتكم به من كونى رسولا منذرا وأن الله تعالى واحد لا شريك له .

« نبأ عظيم » خبر ذو فائدة عظيمة جدا .

« أنتم عنه معرضون » متمادون فى الإعراض عنه لتمادى غفلتكم .

« ما كان لى من علم » ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه .

« بالملأ الأعلى » بحال الملأ الأعلى ، والملأ الجماعة الأشراف لأنهم يملئون العيون رواءوالنفوس جلالة وبهاء ، والمراد به عند ملأ ، الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وكانوا فى السماء .

وجوز أن يكون المراد بالملأ الأعلى الملائكة وباختصامهم قولهم لله تعالى « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .

وعندى أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وباختصامهم تجادلهم فيما بينهم فى النبأ ثم كان ما كان منهم بقولهم بعد أن تجادلوا « أتجعل فيها من يفسد فيها . . . » .

« إذ يختصمون » إذ يتجادلون .

« إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » ما يوحى إلى حال الملأ الأعلى ، أو ما يوحى من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأنى نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى إليه ومصححاته

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق » والمراد إنى خالق فيما سيأتى .

« بشرا من طين » البشر الجسم الكثيف يلاقى ويباشر أو بادى البشرة ظاهر الجلد غير مستور بشعر أو وبر أو صوف ، والمراد به آدم عليه السلام .

« فإذا سويته » فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية .

« ونفخت فيه من روحى » فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التى هى أمرى .

« فقعوا له ساجدين » فاسقطوا له ساجدين ، تحية له وتكريما .

لقد كان النبأ فتنة للملائكة ، وكان الخبر عظيما حقا كما أخبر القرآن . فقالوا لله تعالى « أتجعَلُ فيهَا مَن يُفْسِدُ فيهَا وَيَسْفِكُ الدماءَ . . ؟»(البقرة ٣٠) .

عجبا ! : أتخلق يا ربنا فى الأرض مخلوقا ليعصيك ، ويفسد فيها ، ويملأها شرا ، ويريق دماء الأبرياء بغير حق ؟ ! .

وقالوا لله تعالى « وَنحنُ نُسَبحُ بحمْدِكَ » (البقرة ٣٠) .

إذا كان المراد من خلقه أن يكون منه من يعظمك وينزهك فنحن نعظمك متلبسين بحمد نالك على ما وفقتنا لتسبيحك ، فنحن نسبحك ليل نهار — سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العظمة والجبروت سبحان الحى الذى لا يموت .

وقالوا « وَنُقَدِّس لكَ » (البقرة ٣٠) .

وإذا كان المراد أن يتطهر لعبادتك ويلشغل بك عما سواك ، فنحن نفعل ذلك دائما ، نحن نقدس لك ، أى نطهر أنفسنا من الأدناس ، أو نطهر قلوبنا عن الالتفات لغيرك .

لقد كان الأمر عجيبا فى فقه الملائكة ، لم يدركوا سر القدر ، ولم يحيطوا علما بأهداف الإرادة الإلهية .

ولذلك قال الرب تبارك وتعالى لهم « إنى أعْلَمُ مَالاَ تعْلَمُون »(البقرة ٣٠) .

أعلم من الحكم فى ذلك ما أنتم بمعزل عنه .

من بعد ذلك الحوار الذى كان بين الله والملائكة ، جعل الملائكة ينتظرون قضاء الله فيهم بعد أن اعترضوا على خلق آدم لاستخلافه فى الأرض .

خلق جسد آدم

المكان الذى صوز الله فيه آدم عليه السلام هو الجنة ، جنة المأوى ، الجنة التى سيدخلها الصالحون بعد البعث ، التى وعد الرحمن عباده بالغيب .

والزمان الذى خلق فيه آدم ، هو يوم الجمعة ، فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة .

قبض الله تعالى قبضة من جميع الأرض ، من كل عناصر الأرض . كمية كبيرة من أديم الأرض ، كمية من التراب . وهذا هو الطور الأول .

ثم جعل الله تعالى ذلك التراب طينا وهذا هو الطور الثانى .

ثم ترك الله تعالى ذلك الطين حتى أنتن وتغير لونه . وهذا هو الطور الثالث .

ثم ترك الله سبحانه وتعالى ذلك الطين المنتن المتغير حتى صار طينا لازبا أى ملتزقا بعضه ببعض . والمراد طين ملتصق يلزق باليد إذا مس بها . وهذا هو الطور الرابع .

ثم بدء تصوير الجسد من ذلك الطين المنتن المتغير الملتزق . وهذا هو الطور الخامس .

صوره سبحانه فى أحسن صورة لأنه النموذج الأول للجنس البشرى كله .

وجعل الله تعالى طوله ستين ذراعا وعرضه سبعة أذرع ، خلقا سويا جميلا .

روى أحمد عن أبى هريرة مرفوعاً «كان طول آدم ستين ذراعا فى سبعة أذرع عرضاً » .

والمراد ذراعنا نحن لا ذراعه هو عليه السلام .

قال القرطبى « ويحتمل أن يكون هذا الذراع مقدراً بأذرعتنا المتعارفة عندنا » .

وأتم سبحانه خلق ظاهره وباطنه ، جميع الأعضاء وجميع التجاويف ، وجميع العضلات . وجميع الأمعاء ... وهكذا .

وترك الله جسد آدم بعد أن صوره ملقى فى الجنة حتى جف تماما ، وأصبح يصلصل كما يصلصل الفخار ، ويصوت إذا نقر . وهذ هو الطور السادس .

قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ .. » (الأنعام ٩٨) .

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » أى آدم عليه السلام وهو تذكير لنعمة أخرى فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتعاطف . وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه وتعالى .

« فمستقر ومستودع » أى فلكم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض ، واستيداع فى الأرحام أو فى القبر . أو المستقر الرحم والمستودع الأصلاب .

وقال « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ .. » (الأعراف ١١) .

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم » خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينا غير مصور ثم ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم . والمراد ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه .

وقال « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . (الحجر ٢٦) .

« ولقد خلقنا الإنسان » أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء إجماليا .

« من صلصال » أى طين يابس يصلصل أى يصوت إذا نقر . أو الطين المخلوط بالرمل . أو هو من صلصل إذ أنتن تضعيف صل يقال : صل اللحم وأصل إذا أنتن .

« من حمإ » من طين تغير واسود من مجاورة الماء ويقال للواحدة حمأة .

« مسنون » مصور ، أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الإنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب ، أو المسنون المنتن .

وقال « الَّذى أحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ » . (السجدة ٧) .

« الذى أحسن كل شىء خلقه » أى حسن سبحانه كل مخلوقاته لأنه ما من شىء منها إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت فى مراتب الحسن كما يشير إليه قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

« وبدأ خلق الإنسان من طين » أى آدم عليه السلام ، بدأ خلق هذا الجنس المعروف من طين حيث بدأ خلق آدم عليه السلام خلقا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا منه .

وقال « إنَّا خَلَقْنَاهمُ من طِينٍ لازِبٍ » . (الصافات ١١) .

« إنا خلقناهم » أى خلقنا آدم عليه السلام .

« من طين لازب » من طين ملتصق ، ملتزق بعضه ببعض ، يلزق باليد إذا مس بها . عن ابن عباس أنه قال : اللازب والحمإ والطين واحد كان أوله ترابا ثم صار حمأ منتنا ثم صار طينا لازبا فخلق الله تعالى منه آدم عليه السلام .

وقال « خَلَقَ الإنسَانَ مِنَ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » (الرحمن ١٤) .

« خلق الإنسان » خلق آدم عليه السلام .

« من صلصال » الطين اليابس الذى له صلصلة ، وأصله تردد الصوت من الشىء اليابس ومنه قيل : صل المسمار .

« كالفخار » وهو الخزف أعنى ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمى بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين .

وقال « خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... » (الأنبياء ٣٧) .

« من عجل » هو طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، والمراد بالإنسان جنسه ، جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من نفس العجل ، تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان ، إيذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه.

وقال « لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . (التين ٤) .

أى قومناه تقويما أحسن تقويم ، والمراد بذلك جعله على أحسن ما يكون صورة ومعنى .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ . (مسلم) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : عَنِ النَّبِيِّ صلى الله علية وسلم قال : خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ، فَلَمَّا خَلَقَهُ قال : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلائِكَةِ ، جُلُوس ، فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . فقال : السلامُ عَلَيْكُمْ . فقالوا : السَّلامُ عَلَيْكَ ورحمَةُ اللهِ . فَزَادُوهُ ورحْمَةُ اللهِ ، فكلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلْ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ . (البخارى) .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأشْعَرِيِّ : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ مِنْ جَمِيعِ الأرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأرْضِ ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأحْمَرُ ، والأبيضُ ، والأسْوَدُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخَبِيثُ ، والطيبُ . (الترمذى)

هذا وقد جاء فى شرح ابن العربى على الحديث. « ليس أحد الأجزاء المذكورة من الأرض لخلق آدم بأمر واجب فى العقل لا يجوز غيره ، بل جائز ممكن صحيح ثابت أن يخلق آدم ابتداء من غير شىء ، كما خلق الأصل فى كل شىء ، ولكنه مدبر حكيم ، أراد خلق الأصول من غير شىء ليبين القدرة ، ثم خلق من الأصول المركبات ليبين الحكمة ، فهو القدير الحكيم . لو شاء لخلق الناس على صفة واحدة ، ولكنه نوعهم فى الصفات ، كما نوع أجزاء الأرض ، وأخذ من تلك الأجزاء جملة صوّر منها آدم، على نسبة بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غلب فيها فى المخلوقين بعض الصفات على بعض ، فجاء منهم أحمر ، وأبيض ، وأسود ، وسهل ، وحزن ، وخبيث ، وطيب ، وقد تعتدل على تناسب ، بحكمة بالغة .

قوله فمنهم الحزن ومنهم السهل يعنى بالحزن الذى لا تمكن صحبته ، ولا تلاين أخلاقه . كالأرض الحزنة لا يتأتى المشى فيها ، أو يتأتى على مشقة ، ولا يواتى الاستقرار عليها للسكن إلا للضرورة . ومنهم الحسن الصحبة ، اللين الأخلاق ، المواتى فى المقاصد ، كالأرض السهلة يتأتى المشى عليها ، ويمكن الاستقرار فيها . قوله ومنهم الخبيثُ الذى لا منفعة فيه أو فيه مضرة ومنهم الطيب الذى ننتفع به ولا مضرة فيه » .

ومن حديث الشفاعة الطويل :

« قَالَ : فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْخَلْقِ ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ » (مسلم) .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وخلقِ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ . (مسلم) .

« الجان » الجن

« المارج » اللهب المختلط بسواد النار .

إبليس يطوف بالجسد

ترك الله الجسد ملقى فى الجنة ، وجعل الملائكة يطوفون حوله وينظرون إليه .

كانوا يستغربون ويتعجبون من شأنه . ما هذا الشيء الطويل ، وما هذا المنظر العجيب ؟ . وكيف يتحول هذا الشيء الجاف الذى لا حركة فيه إلى مخلوق نسجدله؟ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يتحول إلى شيء يتحرك .

وكان فيمَن طاف بالجسد ونظر إليه ، ملك كبير سمى فيما بعد « إبليس » .

فلما رآه صاحب جوف ، ورأى له أحشاء ، وأمعاء ، وأعضاء ، عرف أن ذرية ذلك المخلوق من السهل عليه أن يضلها ويوسوس إليها ، ويدفعها إلى الشر .

وتعجب إبليس فى نفسه : أهذا هو المخلوق الذى يريد الله أن أسجد له ؟ . أأسجد لبشر من طين هذا شأنه من المهانة والضعف ؟ .

عَنْ أنَسٍ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لمَّا صَوَّرَ الله آدَمَ فِى الجنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاء اللهُ أنْ يَتْرُكَهُ ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يطيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنَّهُ خُلِقَ خَلْقاً لا يَتَمَالَكُ . (مسلم)

« يطيف به » قال أهل اللغة طاف بالشيء يطوف طوفاً وطوافاً وأطاف يطيف إذا استدار حواليه .

« فلما رآه أجوف » الأجوف صاحب الجوف وقيل هو الذى داخله خال .

« عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك » ومعنى لا يتمالك لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات ، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب . والمراد جنس بنى آدم .

قال تعالى « يريدُ اللهُ أن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضعِيفاً » . (النساء ٢٨) .

« يريد الله أن يخفف عنكم » فى التكليف فى أمر النساء والنكاح . وقيل يخفف فى التكليف على العموم فإنه تعالى خفف عن هذه الأمة مالم يخفف عن غيرها من الأمم الماضية . وقيل : يخفف بقبول التوبة والتوفيق لها .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » أى فى أمر النساء ، لا يصبر عنهن . وقيل يستميله هواه وشهوته ويستشيطه خوفه وحزنه . وقيل : عاجز عن مخالفة الهوى وتحمل مشاق الطاعة . وقيل ضعيف الرأى لا يدرك الأسرار والحكم إلا بنور إلهى .

وعن الحسن أن المراد ضعيف الخلقة يؤلمه أدنى حادث نزل به .

بين الروح والجسد

هنالك ... وآدم بين الروح والجسد ، وجبت النبوة لسيد الخلق أجمعين ، محمد صلى الله عليه وسلم . أوجب الله نبوته صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين ، لتكون من بعد فى ذرية آدم عليه السلام ، تماما لمكارم الأخلاق ، إكمالا لعظمة الجنس البشرى ، وردا للناس إلى فطرة أبيهم آدم التى فطره عليها .

علم الله أنه لابد لسلالة هذا المخلوق ؛ من نور من الله يهديها إذا ضلت ويرشدها إذا غوت ، لابد من نبوة تبعث فيها كلما طال عليها العهد ، فكان إمام النبوة هو محمد صلى الله عليه وسلم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ ؟ قَالَ : وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ . (الترمذى) .

ونفخت فيه من روحى

جف الجسد وصلصل كما يصلصل الفخار إذا نقر ، وأصبح مستعدا لإفاضة الحياة عليه .

واتجهت إرادة الله إلى خلقه إنسانا سويا .

فنفخ الله تعالى فى الجسد من روحه جل وعلا ، أى من أمره .

فسرت الروح فى الجسد ، وتحول الطين الجاف المصور إلى مخلوق حى جميل مدرك ، يشعر ويدرك ويبصر ويسمع ويشم ويشتهى .

قال تعالى « إنَّ مَثَلَ عِيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » . (آل عمران ٥٩) .

« إن مثل عيسى » إن صفة عيسى .

« عند الله » أى فى تقديره وحكمه ، أو فيما غاب عنكم ولم تطلعوا على كنهه .

« كمثل آدم » كصفته العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتات .

« خلقه من تراب » ابتدأ خلق قالبه من هذا الجنس .

« ثم قال له كن فيكون » أى صر بشرا فصار . فإن كنتم تعجبون من خلق عيسى من غير أب ، فلا عجب فقد خلقنا آدم من غير أب ولا أم .

فلما سرت الروح فى الجسد عطس آدم وقال : « الحمد لله » فرد الله تعالى عليه « رحمك الله يا آدم » .

ونهض الجسم الجميل واعتدل قائما ، وذهب وأتى ونظر إلى ما حوله . إلى الجنة فى جمالها وظلالها وروائها . مخلوقا فى أحسن صورة وأكملها ، شاهق الارتفاع ، ستون ذراعا فى السماء أى فى الارتفاع ، عاريا حافيا أغرل أى لم يختتن ، على الفطرة لا يدرى ما الخير وما الشر . إنه لم يختبر بعد !

دخلت الروح تحمل صفات الله ، صفات أصلها ، وهذا هو معنى خلق آدم على صورة الرحمن .

قال تعالى « فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . (الحجر ٢٩) .

وقال « فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (ص ٧٢) .

« ونفخت فيه من روحى » فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التى هى أمرى .

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » (مسلم) .

ومن العلماء من يمسك عن تأويلها ، ويقول : نؤمن بأنها حق ، وأن ظاهرها غير مراد ، ولها معنى يليق بها . وهذا مذهب جمهور السلف ، وهو أحوط وأسلم .
والثانى أنها تتأول على حسب ما يليق بتنزيه الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء .

وعن ابنِ عَبَّاس — رضى اللهُ عنهما — قال خَطَبَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يا أيُّها النَّاسُ إنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إلى اللهِ ، حُفاةً ، عُرَاةً غُرْلاً ، ثُمَّ قَالَ : كَمَا بَدَأْنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إنّا كُنَّا فَاعِلِينَ إلى آخِرِ الآيةِ ... » (البخارى) .

« غرلا » جمع أغرل وهو الذى لم يختتن .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، عَطَسَ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلهِ . فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ . فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ ... » (من حديث الترمذى) .

الملائكة تحيى آدم

ثم أمر الله تعالى آدم عليه السلام وقال له « اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم » .

وذهب آدم كما أمره ربه ، يمشى فى الجنة ، حتى وصل إلى جماعة من الملائكة تجلس فى مكان منها وقال لهم « السلام عليكم » .

وقال الجمع الجالس من الملائكة « وعليك السلام ورحمة الله » .

ورجع آدم إلى ربه بعد أن فعل ما أمر .

فقال الله تعالى لآدم « إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم » .

عن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ الله عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قال : خلَقَ اللهُ آدَمَ وطُولُهُ ستُّونَ ذِراعاً ، ثُمَّ قال : اذْهَبْ فسَلّمْ علىَ أولَئِكَ مِنَ الملائكةِ ، فاستَمِعْ ما يحيُّونَكَ ، تحيتُكَ وتحيةُ ذُرِّيَّتكَ ، فقال : السَّلامُ عليكم ، فقالوا : السَّلام عليكَ ورَحمَةَ الله ، فزادُوهُ ورَحمَةُ الله ، فكل مَنْ يَدخلُ الجنّة على صُورَة آدَمَ ، فلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنقُصُ حتىّ الآنَ . (البخارى) .

وَقَالَ رسُولُ الله صلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ : خلَقَ اللهُ عزَّ وَجلَّ آدَمَ علىَ صُورَتهِ طُولُهُ ستُّونَ ذراعاً ، فلَمَّا خلَقَهُ قَالَ : اذْهَبْ فسَلِّمْ علىَ أولئكَ النَّفَرِ ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الملائكةِ جُلُوسٌ . فَاستَمِعْ مَا يُجيبُونَكَ ، فَإنَّها تَحيَّتُكَ وَتَحيَّةُ ذُرِّيَتكَ . قَالَ : فَذَهَبَ فَقَالَ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله قَالَ : فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ الله ، قَالَ : فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلىَ صُورَةِ آدَمَ ، وَطولُهُ سِتُّون ذِرَاعاً ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنقُصُ بَعْدَهُ حتىَّ الآنَ . (مسلم) .

وهذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في « صورته » عائد إلى آدم وأن المراد أنه خلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير .

ميثاق الذر

ثم أراد الله تعالى أن يبين لآدم وذريته جميعا الغاية التى من أجلها خلقهم جميعاً .
فمسح الله ظهر آدم فسقط من ظهره كل نسمة ، كل روح هو خالقها من ذريته إلى

يوم القيامة . وعلى مشهد من جميع أرواح الناس قال الله تعالى « ألست بربكم » .

فقالت الأرواح كلها . « بلى .. شهدنا ... » .

فقال الله تعالى « ... أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

وكذلك أشهد الله أرواح بنى آدم على أنفسهم ، أشهدهم أنه ربهم لا شريك له ، وأنه خالقهم ، وكان ذلك على مشهد من آدم ومن الله وكفى بالله شهيداً .

وهذا هو الميثاق الأول الذى أخذه الله على جميع الناس فى عالم الأرواح ، وقبل هذه الحياة الدنيا .

قال تعالى « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . (الأعراف ١٧٢ : ١٧٣)

« وإذ أخذ ربك » إن الآية مسوقة لبيان أخذ ميثاق سابق من جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم قبل هذه النشأة بما هو أهم الأمور والأصل الأصيل لجميع التكليفات على وجه خال مما يشبه الاكراه متضمن لالزام المشركين المعاصرين له صلى الله تعالى عليه وسلم ودفع احتجاجهم . أى واذكر لهم أو للناس إذ أخذ ربك .

« من بنى آدم » من آدم عليه السلام ثم من بنيه من بعد ذلك .

«من ظهورهم» من ظهر آدم أخذت جميع ذريته ، ومن ظهر كل إنسان أخذت ذريته

« ذريتهم » أولادهم على العموم ، والمراد إخراج الفروع من الأصول .

« وأشهدهم على أنفسهم » وأشهد كل واحد من اولئك الذرية المأخوذين من ظهور آبائهم على أنفسهم لا على غيرهم تقريراً لهم بربوبيته سبحانه وتعالى التامة قائلا لهم .

« ألست بربكم » أى مالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم ؟ .

« قالوا » فى جوابه سبحانه وتعالى .

« بلى شهدنا » أى على أنفسنا بأنك ربنا لا رب لنا غيرك والمراد أقررنا بذلك .

« أن تقولوا » فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، لئلا تقولوا .

« يوم القيامة » عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك .

« إنا كنا عن هذا » عن وحدانية الربوبية .

« غافلين » لم ننبه عليه .

« أو تقولوا » فى ذلك اليوم .

« إنما أشرك آباؤنا من قبل » أى إن آباءنا هم اخترعوا الاشراك وهم سنوه من قبل زماننا .

« وكنا ذرية من بعدهم » وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نهتدى إلى سبيل التوحيد .

« أفتهلكنا » أى أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب .

« بما فعل المبطلون » من آبائنا المضلين ؟ . لا نراك تفعل .

والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه .

ومن ذلك ما أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند . والبيهقى . وابن عساكر . وجماعة عن أبى بن كعب أنه قال فى الآية : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحا فى صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة إنا لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا إنى سأرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاق وانزل عليكم كتبى قالوا : شهدنا

بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فاقروا ورفع عليهم آدم ينظر إليهم فرأى الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال : يارب لولا سويت بين عبادك قال : إنى أحببت أن أشكر.

عَنْ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَم ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هذَا وأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ (أَحْسَبُهُ قَالَ) وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ (مسلم) .

عَنْ مُسْلِم بن يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هذِهِ الآيةِ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الخطاب : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْئَلُ عَنْهَا ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيمينِه فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هؤُلاَءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هؤُلاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهلِ النارِ يعملون ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَارَسُولَ اللهِ ، فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتعملَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ اللهُ النَّارَ . (الترمذى) .

« مسح ظهره » المراد به فى حق البارى وجود الفعل بقدرته على الوجه الذى أراد .

« وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » قررهم على توحيده فاعترفوا به عن آخرهم .

« قالوا بلى » هذا إقرار محض واعتراف صرف .

« أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » ليس لأحد على البارى حجة ولا يتصور لمخلوق عليه اعتراض لأنه الفعال لما يريد من غير حجر ولا تخصيص بفعل دون فعل بيد أنه أجرى العادة بالتنبيه على المطلوب حتى يرتفع عذر المكلف فتخلف عن طريق العادة فتجرى على الحكمة ولا تخرج من طريق الحجة .

وعنْ أبى هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ الله صلَّى الله عليهِ وسلمَ : لمَّا خلقَ الله آدَمَ مسحَ ظهرهُ فسقطَ من ظهره كُلُّ نسمةٍ هوَ خالقُها منْ ذُريته إلى يَوْمِ القيامَةِ وجعل بينَ عينىْ كُلُّ إنسانٍ منهُمْ وبيصاً منْ نورٍ ثُمْ عرضهُم على آدمَ فقالَ أىْ رَبِّ منْ هؤلاءِ قالَ هؤلاءِ ذُريتُكَ ... (من حديث الترمذى) .

« بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً » أخبر أنه لما أسقطهم من ظهره جعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا يحتمل أن يكون على عمومه فى المؤمن والكافر ثم محا نور الكافر فلا يجدد كما ينور الله قلب العبد بالإيمان ثم يختم له بالكفر فيظلله ونعوذ بالله من ذلك . ويحتمل أن يكون النور فى وجوه المؤمن خاصة . وروى أن النور إنما كان فى وجوه الأنبياء والتقدير جعل بين عينى كل إنسان من الأنبياء .

ومن حديث الترمذى « فقالَ اللهُ لهُ ويداهُ مقبوضتانِ . اخترْ أيهُما شئتَ » . قالَ : اخترتُ يمينَ ربى وكلتَا يدىْ ربى يمينٌ مباركةٌ ثُمْ بسطهَا فإذَا فيهَا آدَمُ وذريتهُ ، فقالَ : أىْ ربِّ ما هؤلاء ؟ فقالَ : هؤلاءِ ذريتُكَ ، فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عمرهُ بينَ عينيهِ ... (الترمذى) .

لقد كان مشهداً عظيماً ، يوم عرض الله تعالى على آدم عليه السلام جميع أرواح بنيه ، ذكرهم وأنثاهم ، شقيهم وسعيدهم ، فقيرهم وغنيهم ، طويلهم وقصيرهم .

وأشفق آدم عليه السلام من اختلاف أقدار بنيه ، وسأل ربه تبارك وتعالى أن يسوى بينهم ، فأرشده سبحانه إلى حكمته فى ذلك . وقال « أردت أن أشكر » يعنى على النعم التى منها القوة والصحة والغنى فصار حظ النعمة أوقع فى المقادير من حظ الابتلاء .

وعلم آدم الأسماء كلها

ثم أراد الله تعالى أن يظهر للملائكة أجمعين أن آدم عليه السلام يعلم مالا يعلمون وأنه بذلك هو الصالح للخلافة فى الأرض .

فأوحى إلى آدم عليه السلام اسم كل شىء ، عرض عليه كل شىء ، فى السماء والأرض وعلمه ماذا يسميه وفيم يستعمل ولماذا خلق .

إن الله خلق كل ما فى الأرض ليسخره الإنسان لمنفعته ، فألهم آدم اسم هذه الأشياء وفيم تستعمل وكيف تستعمل .

وكذلك أصبح آدم عليه السلام ، عالما بكل شىء فى الأرض أو فى السماء ، عالما بكيفية استعماله .

قال تعالى « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... » . (البقرة ٣١) .

« وعلم » أى فخلقه وسواه ونفخ فيه الروح وعلم .

« آدم » سمى كذلك لأنه أخذ من أديم الأرض أى ما ظهر منها .

« الأسماء » المراد بالأسماء صفات الأشياء ونعوتها وخواصها . أو أسماء الأشياء علوية أو سفلية جوهرية أو عرضية . وألهمه معـــرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العـــلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها .

« كلها » مامن طير يطير بجناحيه إلا دعاه الله سبحانه إلى آدم فسماه باسمه وأوضح فيما يستعمل ، ومامن حيوان يدب على الأرض إلا جمعه الله لآدم فسماه وبين منفعته للإنسان .

لقد جمع الله تعالى لآدم عليه السلام العلم بالدنيا وكيفية عمارتها وتسخيرها ، وهذا ما لا يعلمه الملائكة ولا سبيل لهم إليه .

وجمع له عليه السلام علم الآخرة وما يكون عليه الإنسان فى النهاية من نعيم أو شقاء ، وكيف يكون وما عليه يكون .

وبذلك أصبح ذلك الجسد من طين فيه ما ليس فى الملائكة الذين هم من نور .

وتلك معجزة الله العظمى فى خلق الإنسان .

أنبئونى بأسماء هؤلاء

وعلى ملأ من الملائكة أجمعين ، أقام الله آدم ليشرفه ويرفعه عليهم مكانا عليا .

وعرض سبحانه على الملائكة كل شىء سبق أن علمه لآدم وألهمه خاصية وكيفية استعماله .

قال تعالى « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ » (البقرة ٣١) .

«ثم عرضهم على الملائكة» ومعنى عرض المسميات تصويرها لقلوب الملائكة ، أو إظهارها لهم كالذر ، أو إظهار ذلك لهم فى عالم تتجسد فيه المعانى وهذا غير ممتنع على الله تعالى .

وقال سبحانه للملائكة « أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ » . (البقرة ٣١) .

أخبرونى بأسماء هذه الأشياء وفيم تستعمل . والمراد إظهار عجزهم وقصور استعدادهم عن رتبة الخلافة الجامعة للظاهر والباطن بأمرهم بالأنباء بتلك الأسماء على الوجه الذى أريد منهم والإنباء فى الأصل مطلق الإخبار ، ويطلق على الإخبار بما فيه فائدة عظيمة ، واختاره هنا للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها وهذا مبنى على أن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم .

ثم قال الله لهم « إن كُنتُمْ صَادِقِينَ » . (البقرة ٣١) .

أى إن كنتم صادقين فيما تزعمون من استحقاقكم الخلافة عنى فى الأرض ، فخبرونى ما اسم هذه الأشياء وفيم تستعمل ؟

أو إن كنتم صادقين فيما اختلج فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا أنتم أعلم منه وأفضل .

ووقف الملائكة كلهم لا يعلمون ماذا يجيبون . إنهم لا يعلمون شيئا عن أسماء الأشياء التى خلقها الله فى الأرض لاستعمال الإنسان. إنهم لم يخلقوا ليأكلوا ويشربوا فلا سبيل لهم إلى علم ما يؤكل وما يشرب ، ولم يخلقوا ليسعوا على معاشهم فلا سبيل لهم إلى علم المعايش وما تقوم به الحياة . إنهم خلقوا للتسبيح والعبادة فماذا يقولون؟

سيقولون ما يناسب طبيعتهم ، سينزهون الله ويسبحونه .

وقال الملائكة أجمعون « سُبْحَانَكَ » .

ننزهك يا رب تنزيها عن أن يكون فيما قضيت شىء يخالف الحكمة .

« لا علمَ لنَا إلاَّ ما علمتنَا » لا علم لنا أصلا ، ولكن ما تفضلت به علينا وأوحيت علمه إلينا ، وأنت لم تعلمنا أسماء هذه الأشياء وخاصيتها ، وإنما اختصصت بها آدم الذى أعددته لهذا الأمر .

وختم الملائكة اعتذارهم قائلين « إنَّكَ أنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » (البقرة ٣٢) .

إنك أنت العليم الذى أحاط بكل شىء علما أما نحن فنجهل هذا الأمر . الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها . لما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه وأردفوه بالوصف بالحكمة لماتبين ما تبين .

يا آدم أنبئهم بأسمائهم

وعلى ملإ من جميع الملائكة شرف الله آدم تشريفا وكرمه تكريما .

وناداه ربه « يَا آدَمُ أنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ » .

نبىء يا آدم الملائكة بأسماء هذه الأشياء جميعاً وفيم تستعمل . سم كل شىء فكيفما سميته سيكون اسمه . وفيم يستعمل فكيفما تقول سيكون استعماله .

سمى آدم كل شىء وذكر استعماله وخصائصه وفى ذلك يقول سبحانه :

« فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ » فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء الأشياء كلها .

هنا لك أدرك الملائكة كلهم فضل آدم الذى كانوا يعترضون على استخلافه فى الأرض . وأدركوا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته . وأنهم كانوا على غير حق فيما يقولون .

وهنا لك قال تعالى للملائكة أجمعين وعلى مشهد من آدم « أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » . (البقرة ٣٣) .

ألم أخبركم حينما اعترضتم على استخلافى لآدم أنى وحدى الذى يعلم ما غاب عن علم الخلائق فى السماوات كلها والأرض كلها ، وأنى أعلم ما تظهرون من أقوال وما كنتم تسرون فى أنفسكم نحو هذا الأمر وزعمكم أن الله لن يخلق مخلوقا أكرم عليه منكم ؟ .

لقد ظن الملائكة أنهم لتقدسيهم وتطهرهم واستمرارهم على الطاعة ، وامتناع المعصية منهم ، وما أوتوا من العلم . ظنوا لذلك كله أنهم أفضل ما خلق الله ، وأنهم لذلك أحق بالخلافة فى الأرض . كيف لا وهم يطيعون ويسبحون ويتقربون ، وذرية آدم ستعصى وتضل وتفسد ؟ فأظهر الله تعالى حقيقة آدم ، وما اختصه به سبحانه من العلم الزائد على علمهم ، فألهمه أسماء الأشياء ، وأظهر فضله عليهم حيث عرف الأشياء ولم يستطيعوا هم ذلك ، ثم أراد أن يزيدهم بلاء ويزيد آدم رفعة فأمرهم . .

اسجدوا لآدم

بعد أن استبان للملائكة أجمعين أن آدم أوتى من العلم ما لم يؤتوا ، واستحق بذلك الخلافة فى الأرض .

أمرهم الله جميعاً « اسْجُدُوا لِآدَمَ » . (البقرة ٣٤) .

خروا كلكم سجدا لهذا الذى كرمت عليكم .

« فسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ » (الحجر ٣٠) .

فامتثل على الفور كل الملائكة ، وسجدوا لآدم كما أمرهم ربهم .

يا له من مشهد عظيم ! . جميع الملائكة مع ما لهم من مكانة عند الله يسجدون أمام آدم ، ويجعلون آدم قبلتهم ، امتثالا لأمر ربهم الذى جبلوا وفطروا على طاعته .

وبذلك بلغ تكريم آدم فى السماء غايته ، وأسجد الله له ملائكته ، ليعلم من هذا أن من أطاع الله طوع له كل شىء .

وكان ذلك هو أعلى حد بلغه آدم ، وذروة سنام تكريمه على الملأ الأعلى .

قال تعالى « إنَّ اللهَ اصْطَفَىَ آدَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرانَ عَلىَ الْعَالَمِينَ » . (آل عمران ٣٣) .

« إن الله اصطفى آدم » الاصطفاء الاختيار ، وأصله أخذ صفوة الشىء كالاستصفاء . وبدأ بآدم عليه الصلاة والسلام لأنه أول النوع .

ومن هنا استدل بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة ، ووجه الاصطفاء فى جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية حتى أنهم امتازوا كما قيل : على سائر الخلق ، خَلقاً وخُلقاً ، وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ، ومظهر أسمائه وصفاته ، ومحل تجليه الخاص من عباده ، ومهبط وحيه ، ومبلغ أمره ونهيه وقيل اصطفى آدم بأن خلقه بيديه ، وعلمه الأسماء ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جواره .

عنْ أنس رضى الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يجمعُ المؤمنونَ يوْمَ القيامةِ ، فيقولونَ : لوْ استشفعنَا إلى ربنا فيرُيحنا مِنْ مكانِنا هذَا ؟ فيأتونَ آدمَ فيقولونَ لهَ : أنتَ آدمُ أبو البشرِ ، خلقكَ اللهُ بيدهِ ، وأسجدَ لكَ الملائكةَ وعلمكَ أسماءَ كلِّ شىءٍ ، فاشفعْ لنا إلى ربنا ، حتىَّ يريحنا ، فيقولُ لهُمْ : لستُ هناكُم ، فيذكرُ لهُمْ خطيئتهُ التى أصابَ (البخارى) .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : جلسَ ناسٌ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ

وسلم ينتظرونهُ ، قالَ : فخرج ، حتى إذَا دنَا منهُمْ سمعهُمْ يتذاكرونَ ، فسمعَ حديثهمْ ، فقالَ بعضهمْ : عجباً ، أنْ اللهَ عزْ وجلْ اتخذَ منْ خلقهِ خليلاً . اتخذ إبراهيم خليلا وقالَ آخرُ : ماذَا بأعجبَ منْ كلامِ موسىَ كلمهُ تكليماً ، وقالَ آخرُ : فعيسىَ كلمةُ الله وروحهُ ، وقالَ آخرُ : آدمُ اصطفاهُ اللهُ ، فخرجَ عليهمْ فسلمَ ، وقالَ : قدْ سمعتُ كلامكُمْ وعجبكُمْ ، إنّْ إبراهيمَ خليلُ اللهِ ، وهوَ كذلكَ ، وموسى نجيُّ الله ، وهوَ كذلكَ ، وعيسىَ روحُ اللهَ ، وكلمتهُ ، ، وهوَ كذلكَ ، وآدَمَ اصطفاهُ اللهُ ، وهوَ كذلكَ ، ألاَ وأنَا حبيبُ اللهِ ، ولا فخرَ ، وأنَا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ، ولا فخرَ ، وأنَا أولُ شافعٍ ، وأول مشفعٍ يوْمَ القيامةَ ، ولا فخرَ ، وأنا أولُ منْ يحرك حلقَ الجنةِ ، فيفتحُ اللهُ لي ، فيدخلنيهَا ، ومعي فقراءُ المؤمنينَ ، ولا فَخْرَ ، وأنَا أكرمُ الأوَّلينَ والآخرين ، ولا فَخْرَ . (الترمذي) .

وعندى أن من اصطفاء آدم ، وأسباب تفضيله على الملائكة ، أنه أصل البشر جميعاً ، ومنه كان الناس كلهم ، وهو أمر لو فكر فيه إنسان لأدرك مدى كرامة آدم فليست كرامته عليه السلام فيما جعله الله فى خلقته وروحه من مزايا فحسب ، ولكن فى تسلسل هذه البشرية منه . وما ظهر من أنبياء وصالحين من ذريته . وما سيكون منهم بعد ذلك من عمار الجنة والنار . لقد كان بداية قصة عظيمة لن تنتهى أبداً . لأن أبناءه من بعده سيخلدون فى إحدى الدارين ولا نهاية لخلودهم .

قال تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً » . (النساء ١) .

« يا أيها الناس » خطاب يعم المكلفين من لدن نزل آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة . والناس تشمل الذكور والإناث بلا نزاع .

« الذى خلقكم من نفس واحدة » هى آدم عليه السلام .

« وخلق منها زوجها » المراد من الزوج حواء وهى قد خلقت من ضلع آدم عليه السلام الأيسر .

« وبث منهما » أى نشر وفرق من تلك النفس، وزوجها، على وجه التناسل والتوالد

« رجالا كثيرا ونساء » كثيرا جداً جداً ، لا حصر لهم ، وليس فى مقدور أحد أن يحصرهم ، نحن فقط نعلمهم ، المستقدمين منهم والمستأخرين ، لقد أحصيناهم وعددناهم عداً .

هذا هو أقوى ـ الوجوه ـ عندى فى خلق آدم عليه السلام ، وإلى هذا يشير قوله سبحانه « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » (الروم ٢٠) .

« ومن آياته » الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح من دلالة ما سبق فإن دلالة بدأ خلقهم على إعادتهم ، أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى .

« أن خلقكم » أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه عليه السلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا .

« من تراب » لم يشم رائحة الحياة قط ، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه ، فى ذاتكم ، وصفاتكم

« ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » أى فى الأرض تتصرفون فى أغراضكم وأسفاركم .

هذا هو وجه العجب ، فى اصطفاء آدم ، وتفضيله على الملائكة .

إلا إبليس أبى

سجد الملائكة كلهم ، أجمعون ، لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد بل ، أوقعوا الفعل مجتمعين فى وقت واحد . إلا إبليس ، أبى أن يكون مع الساجدين ! .

لقد كان إبليس من الجن ، وهو صنف من الملائكة ، لا تراهم الملائكة ، مثلنا ، لشدة قربهم من الله .

كان ملكا كبيراً مقربا ، وكان يعلم من الله ما لا يعلم غيره من الملائكة .

وقد أسر فى نفسه أمراً منذ أخبره الله تعالى ضمن سائر الملائكة أنه خالق بشرا من طين ، وأنه مستخلفه فى الأرض ، وأن عليه أن يسجد له فور نفخ الروح فيه . أسر أنه لن يسجد لهذا البشر من طين ، لأنه خير منه ، لأنه خلق من نار ، بينما آدم خلق من طين ! ! وأخفاها فى نفسه ولم يبدها ، حتى كان البلاء ، وأمر الله الجميع بالسجود .

فلما سجد الملائكة كلهم، تنحى إبليس جانباً ، وأنف، واستكبر أن يسجد لآدم.

وعلى أعين الجميع ، على مشهد من آدم ، والملائكة أجمعين ، دار بين الله تعالى وبين إبليس الحوار الخالد .

أنا خــــير منه ! !

الله : مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ ؟ .

إبليس : أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ .

الله : فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين .

« فاهبط منها » أصل الهبوط الانحدار على سبيل القهر كما فى هبوط الحجر . فاخرج من صورة الملائكة إلى صورة الشيطان ، فاخرج من الجنة إلى الأرض ، فاخرج من السماء إلى الأرض . اخرج من زمرة الملائكة المعززين .

«فما يكون لك أن تتكبر فيها » فما يصح ، ولا يستقيم ، ولا يليق بشأنك أن تتكبر فى الجنة ، أو فى السماء .

والجملة تعليل للأمر بالهبوط ، ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج فى مقابلة قوله (أنا خير منه خلقتنى من نار) المشير إلى ارتفاع عنصره وعلو محله ، والتكبر كالكبر ، وهو الحالة التى يختص بها الشخص من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى

نفسه أكبر من غيره وأعظم . والمراد بالتكبر هنا ، إما التكبر على الله تعالى ، وهو أعظم التكبر ، ويكون بالامتناع ، عن قبول الحق ، والإذعان له بالعبادة ، وقدره بعضهم بالمعصية . وإما التكبر على آدم عليه السلام ، بزعمه أنه خير منه ، وأكبر قدرا : وإما التكبر على الملائكة حيث زعم أن له خصوصية ، ميزته عليهم وأخرجته من عمومهم . وزعم البعض أن فى الآية تنبيها على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة ، فكما يمنع من القرار فيها ، يمنع من دخولها بعد ذلك ، وأنه تعالى إنما طرده لتكبره ، لا لمجرد عصيانه .

عنْ أبي هريرةَ عن رسولِ اللهِ صلىّ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : ما نقصتْ صدقةٌ منْ مالٍ ، وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً ، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلاّ رفعهُ اللهُ . (مسلم) .

« فاخرج إنك من الصاغرين » أى إنك من أهل الصغار والهوان على الله تعالى ، وعلى أوليائه لتكبرك .

وقيل : المراد من الإذلال فى الدنيا بالذم واللعن . وفى الآخرة بالعذاب بسبب ما ارتكبه من المعصية والتكبر . والمراد وصفه بأنه خسيس الطبع دنىء ، وأنه رأى نفسه أكبر من غيره وليس بالكبر .

إبليس : أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

« أنظرنى » أمهلنى ولا تمتنى .

« إلى يوم يبعثون » إلى يوم يبعث آدم وذريته وهو وقت النفخة الثانية ، وأراد بذلك أن يجد فسحة فى الاغواء ، وأخذ الثأر ، ونجاة من الموت ، إذ لا موته بعد البعث .

الله : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ .

« إنك » إنكَ يا إبليس .

« من المنظرين » من المهلين ، من المؤخر موتهم ، والمؤخر عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم ، أى يوم النفخة الأولى .

إبليس : فبمَا أغويتنى لأقعُدَنّ لهُمْ صراطكَ المستقيمَ . ثُمّ لآتينهم من بين أيديهمْ ومنْ خلفهمْ وعن أيمانهمْ وَعن شمائلهمَ ولا تجدُ أكثرهُمْ شاكرينَ.

« فبما أغويتنى » فبسبب اغوائك اياى ، لأجلهم ، أقسم بعزتك . بما أضللتنى .

« لأقعدن لهم » أى لآدم عليه السلام وذريته ، ترصدا بهم ، كما يقعد القطاع للسابلة . أى لألزمن لهم .

« صراطك المستقيم » الموصل إلى الجنة وهو الحق الذى فيه رضاك . لأبعدنهم عن طريقك المستقيم .

« ومن خلفهم » ومن جهة الماضى .

وعن أيمانهم » ومن جهة حسناتهم فأدخل عليهم فيها ما يبطلها من جهة الخير فأصدهم عنه .

« وعن شمائلهم » ومن جهة السيآت ، من جهة الشرّ فأزينه لهم .

والمراد لأسولن لهم ، ولأضلنهم بقدر الإمكان ، إلا أنه شبه حال تسويله ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أى جهة أمكنته .

« ولا تجد أكثرهم شاكرين » أى مطيعين .

الله : أخرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم لأمْلأنّ جَهَنّمَ مِنكُمْ أجْمَعِينَ . (الأعراف ١٢ : ١٨) .

« أخرج منها » أى من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ، أو من السماء .

« مذءوما » أى مذموما ، أو مهانا لعينا .

« مدحورا » وهو من الدحر ، بمعنى الطرد والإبعاد ، أى مطروداً مبعداً .

ثم ان الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة كانت منه عز وجل من غير واسطة ، وليس المقصود منها الإكرام والتشريف بل التعذيب والتعنيف .

لم أكن لأسجد لبشر ؟!

ودار الحوار . . .

الله : يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟ .

أى أى سبب لك ، ما منعك ، فى أن لا تكون مع الساجدين لما خلقت .
والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة وهو منصب عال إذا كان على سبيل الإعظام والإجلال ، دون الإهانة والإذلال .

إبليس : لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

« لم أكن لأسجد » ينافى حالى ولا يستقيم منى أن أسجد .

« لبشر » جسمانى كثيف .

« خلقته من صلصال » من طين جاف .

« من حمإ مسنون » أصله من طين منتن قد تغير لونه .

وقدعنى اللعين بهذا الوصف بيان مزيد خسة أصل من لم يسجد له . كأنه قيل : لم امتنع عن الانتظام فى سلك الساجدين ، بل عما لا يليق بشأنى من السجود للمفضول.

الله : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

« فاخرج منها » فاخرج من الجنة ، فاخرج من زمرة الملائكة ، فاخرج من السماء

« فإنك رجيم » مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة ، فالكلام من باب الكناية . وقيل : أى شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد بالرجم بها . فكأنه قيل : إن المانع لك عن السجود شقاوتك ، وسوء خاتمتك ، وبعدك عن الخير ، لا شرف عنصرك الذى تزعمه .

وفى تفسير الرجيم بالمرجوم بالشهب إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار

عذب بها فى الدنيا ، فهو كعابد النار يهواها وتحرقه .

« وإن عليك اللعنة » الإبعاد على سبيل السخط وذلك انقطاع عن قبول فيضه تعالى وتوفيقه سبحانه ، ومن الإنسان دعاء بذلك . والظاهر أن المراد لعنة الله تعالى لقوله سبحانه (وإن عليك لعنتى) .

« إلى يوم الدين » إلى يوم الجزاء ، وفيه اشعار بتأخير جزائه إليه ، وإن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ . وجعل ذلك غاية أمد اللعنة قيل ليس لأنها تنقطع هنا لك ، بل لإنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب : فتصير هى كالزائل . وقال بعضهم : إن المراد باللعنة لعن الخلائق له وذلك منقطع إذا نفخ فى الصور وجاء يوم الدين ، دون لعن الله تعالى له وإبعاده إياه فإنه متصل إلى الأبد .

إبليس : رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

« رب فأنظرنى » رب إذ جعلتنى رجيما فأمهلنى وأخرنى ولا تمتنى .

« إلى يوم يبعثون » أى آدم عليه السلام وذريته للجزاء وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره . قيل : ولينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث وكأنه عليه اللعنة طلب تأخير موته لذلك ، ولم يكتف بما أشار إليه سبحانه فى التغيي من التأخير ، لما أنه يمكن كون تأخير العقوبة كسائر من أخرت عقوباتهم إلى الآخرة من الكفرة .

الله : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

أى من جملتهم ومنتظم فى سلكهم . أى أنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين .

« إلى يوم الوقت المعلوم » وهو وقت النفخة الأولى ووصفه بالمعلوم إما على معنى أن الله تعالى استأثر بعلمه ، أو على معنى معلوم حاله وأنه يصعق فيه من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . وقال آخرون : إنه عليه اللعنة أعطى مسئوله كملا ،

وليس إلا البقاء إلى وقت النفخة الأولى ، وهو آخر أيام التكليف . والوقت المشارف للشيء المتصل به معدود منه ، فأول يوم الدين وأول يوم البعث كأنه من ذلك الوقت .

إبليس : رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .

« رب بما أغويتنى » بسبب إغوائك إياى ، بما أضللتنى .

« لأزينن » أى أقسم لأزينن .

« لهم » أى لذريته . لأزينن لهم فعل المعاصى .

« فى الأرض » لأزينن لهم المعاصى فى الدنيا التى هى دار الغرور . والمعنى لأحسنن الدنيا وأزينها لهم حتى يشتغلوا بها عن الآخرة .

« ولأغوينهم » ولأضلنهم ، ولأجعلنهم شراراً .

« أجمعين » أى كلهم فهو لمجرد الإحاطة هنا .

« إلا عبادك منهم المخلصين » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من كل ما ينافى ذلك .

الله : هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر من ٣٢ إلى ٤٨) .

« هذا صراط » الاخلاص طريق .

« علىّ » حق علىّ لابد أن أراعيه ، أوجبت على نفسى .

« مستقيم » لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره .

أو على معنى أن الاخلاص طريق يؤدى إلى الوصول إلى ، من غير اعوجاج وضلال

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » أى تسلط وتصرف بالاغواء . والمراد بالعباد العموم ، ويكون الكلام تكذيبا للملعون فيما أوهم أن له سلطانا على من ليس بمخلص من عباده سبحانه ، فإن منتهى قدرته أن يغرهم ، ولا يقدر على جبرهم على اتباعه كما قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فحاصل المعنى أن من اتبعك ليس لك عليهم سلطان وقهر بل أطاعوك فى الاغواء واتبعوك لسوء اختيارهم .

« إلا من اتبعك من الغاوين » إلا من أطاعك واتبع خطواتك من الضالين .

« وإن جهنم لموعدهم أجمعين » ولا يخفى ما فى جعل جهنم موعدا لهم من التهكم والاستعارة فكأنهم كانوا على ميعاد ، وفيه أيضاً إشارة إلى أن ما أعدلهم فيها مما لا يوصف فى الفظاعة .

« لها سبعة أبواب » أى سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة

« لكل باب منهم » من الاتباع والغواه .

« جزء مقسوم » فريق معين مفروز من غيره حسبما يقتضيه استعداده .

« إن المتقين » إن الذين اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها .

« فى جنات وعيون » كل منهم فى جنات عظيمة أعدت له ، وعيون عظيمة أعدت له خصيصاً

« ادخلوها » أمر لهم بالدخول من قبله تعالى .

« بسلام » أى سالمين من الآفة والزوال ، أو مسلما عليكم .

« آمنين » الآمن من زوال ذلك فى الاستقبال .

« ونزعنا ما فى صدورهم من غل » أى حقد .

« إخوانا » طهر الله تعالى قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع سبحانه منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب .

« على سرر » إشارة إلى أنهم فى رفعة وكرامة تامة .

« متقابلين » متساوين فى التواصل والتزاور . وهو إشارة إلى أنهم يجتمعون ويتنادمون .

« لا يمسهم فيها » أى فى تلك الجنات .

« نصب » تعب ما ، إما بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من السعى فى تحصيل مالا بد لهم منه ، لحصول كل ما يشتهونه من غير مزاولة عمل أصلا ، وإما بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم .

« وما هم منها بمخرجين » أى هم خالدون فيها .

كيف أسجد لمخلوق ؟ !

ودار الحوار . . .

إبليس : « أَأسجُدُ لمنْ خلقتَ طيناً ؟ ! » .

« أأسجد لمن خلقت » كيف أسجد لمخلوق ، والسجود إنما هو للخالق تعالى مجده؟

« طيناً » أأسجد له وهو من طين ، وأصله طين ؟ .

وفيه تحقير له عليه السلام — وحاشاه — بجعله نفس ما كان عليه لم تزل عنه تلك الذلة .

ثم قال اللعين بعد طرده من المحل الأعلى ولعنه واستنظاره وإنظاره .

لأهلكنهم ! !

إبليس : أرَءَيتكَ هذَا الذِى كرمت علىّ لئنْ أخرتنِ إلىَ يَوْمِ القيَامَة لأحتنكنّ ذريتهُ إلاَّ قليلاً .

« أرءيتك هذا الذى كرمت على » أخبرنى عن هذا الذى كرمته على ، لم كرمته علىّ ، وأنا أكرم منه ؟ ! .

وأيا كان فاسم الإشارة للتحقير . والمراد من التكريم التفضيل .

« لئن أخرتن إلى يوم القيامة » لئن أبقيتني حيا ، أو أخرت موتى إلى يوم البعث

« لأحتنكن ذريته » لأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم : حنك الدابة واحتنكها إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به . أو لاستأصلنهم وأهلكنهم بالاغواء من قولهم : احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها وجرد ما عليها .

« إلا قليلا » منهم ، وهم العباد المخلصون ، الذين جاء استثناؤهم فى آية أخرى.

وعلم اللعين تسنى هذا المطلب له حتى ذكره مؤكدا ، إما بواسطة التلقى من الملائكة سماعا وقد أخبرهم الله تعالى به ، أورأوه فى اللوح المحفوظ ، أو بواسطة استنباطه من قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) مع تقرير الله تعالى له ، أو بالفراسة لما رأى فيه من قوة الوهم والشهوة والغضب المقتضية لذلك .

الله : اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً . (الاسراء ٦١ إلى ٦٥) .

« اذهب » ليس المراد به حقيقة الأمر بالذهاب ضد المجىء ، بل المراد تخليته وما سولته نفسه ، إهانة له ، كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد .

« فمن تبعك منهم » وضل عن الحق .

« فإن جهنم جزاؤكم » أى جزاؤك وجزاؤهم ، فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية .

« جزاء موفورا » أى مكملا لا يدخر منه شىء .

«واستفزز» أى استخف ، يقال استفزه إذا استخفه فخدعه وأوقعه فيما أراده منه . والمراد من الأمر التهديد وكذا من الأوامر الآتية ، ويمنع من إرادة الحقيقة

أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء .

« من استطعت » أى الذى استطعت أن تستفزه .

« منهم » من ذرية آدم عليه السلام .

« بصوتك » أى بدعائك إلى معصية الله تعالى ووسوستك . وعبر عن الدعاء بالصوت تحقيرا له حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمار . وعن مجاهد تفسيره بالغناء والمزامير واللهو والباطل .

« وأجلب عليهم » أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح . وأجلب على العدو : جمع له الخيل .

« بخيلك ورجلك » والخيل يطلق على الأفراس حقيقة وعلى الفرسان مجازا وهو المراد هنا . والرجل بمعنى راجل ، يقال فلان يمشى رجلا أى غير راكب .

فمعنى (بخيلك ورجلك) أى بفرسانك ومشاتك . فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله فهو من رجل إبليس .

« وشاركهم فى الأموال » بحملهم على كسبها مما لا ينبغى وصرفها فيما لا ينبغى .

« والأولاد » بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة ، وارتكاب ما لا يرضى الله تعالى فيهم .

« وعدهم » المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة ، ونفع الأنساب الشريفة من لم يطع الله تعالى أصلا ، وعدم خلود أحد فى النار لمنافاة ذلك عظم الرحمة ، وطول أمل البقاء فى الدنيا . ومن الوعد الكاذب وعده إياهم أنهم إذا ماتوا لا يبعثون ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة .

« وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » اعتراض لبيان حاله للناس ، والأشعار بعلية شيطنته للغرور ، وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب .

وذكر فى سبب كون وعد الشيطان غرور الا غير أنه إنما يدعو إلى أحد ثلاثة

أمور : قضاء الشهوة . وإمضاء الغضب . وطلب الرياسة والرفعة . ولا يدعو البتة إلى معرفة الله تعالى وخدمته . وتلك الأشياء الثلاثة ليست لذائذ فى الحقيقة بل دفع آلام، وإن سلم أنها لذائذ لكنها خسيسة يشترك فيها الناقص والكامل، بل الإنسان والكلب ومع ذلك هى وشيكة الزوال، ولا تحصل إلا بمتاعب كثيرة، ومشاق عظيمة ويتبعها الموت والهرم، واشتغال البال بالخوف من زوالها، والحرص على بقائها .

ولذات البطن والفرج منها لا تتم إلا بمزاولة رطوبات متعفنة مستقذرة، فتزيين ذلك لا يكاد يكون إلا بما هو أكذب من دعوى اجتماع النقيضين، وهو الغرور .

« إن عبادى » الاضافة للتعظيم، فتدل على تخصيص العباد بالمخلصين، كما وقع التصريح به فى الآية الأخرى، ولقرينة كون الله تعالى وكيلا لهم، يحميهم من شر الشيطان، فإن من هو كذلك لا يكون إلا عبداً مكرما مختصا به تعالى . وكثيراً ما يقال لمن يستولى عليه حب شىء فينقاد له عبد ذلك الشىء، ومنه عبد الدينار والدرهم وعبد بطنه، ومن هنا يقال لمن يتبع الشيطان عبد الشيطان .

« ليس لك عليهم سلطان » أى تسلط وقدرة على إغوائهم .

« وكفى بربك وكيلا » لهم يتوكلون عليه جل وعلا، ويستمدون منه تعالى فى الخلاص عن إغوائك، فيحميهم سبحانه منه . وكفى بربك أيها الإنسان وكيلا، فهو جل جلاله يدفع كيد الشيطان، ويحفظ منه .

واستدل بالآية على أن المعصوم من عصمه الله تعالى، وان الإنسان لا يمكنه ان يحترز بنفسه عن مواقع الضلال، وإلا لقيل وكفى بالإنسان وكيلا لنفسه .

فبعزتك . . لأغوينهم !

ودار الحوار . . .

الله : يَا إِبْلِيسُ مَامَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أستكبرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ؟ .

« يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » هذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه عليه السلام معنى بخلقه فإن من شأن المعتنى به أن يعمل باليدين ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب وأم ، وكونه جسما صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر ، وكونه أهلا لأن يفاض عليه ما لا يفاض على غيره ، إلى غير ذلك من مزايا الآدمية . وعند بعض آخر منهم اليد بمعنى القدرة ؟ والتثنية للتأكيد الدال على مزيد قدرته تعالى ، لأنها ترد لمجرد التكرير .

والسلف يقولون : اليد مفردة وغير مفردة ثابتة لله عز وجل على المعنى اللائق به سبحانه ، ولا يقولون فى مثل هذا الموضع إنها بمعنى القدرة أو النعمة .

كأنه قيل : ما منعك أن تعظم بالسجود من هو أهل للتعظيم للعناية الربانية التى حفت إيجاده ؟ .

هذا وعندى أن خلق آدم بيدى الله تعالى ، يشير إلى معنى عظيم اختص الله تعالى به آدم عليه السلام . وهو أن الله تعالى خلقه بنفسه مباشرة من غير استعمال الوسائط من ملائكة وغيرها . فإن ذريته عليه السلام يبعث الله ملائكة فتنفخ الروح فى الأرحام ليحيى بها الأجنة ، وليس كذلك آدم عليه السلام فإن الله خلق جسده بنفسه ونفخ فيه الروح بنفسه بغير وسائط ، وهذا بعض ما تشير إليه الآية فى قوله سبحانه « بيدى » أى باشرت خلقه بنفسى . والأخبار الصحيحة ظاهرة فى أن ذلك وصف تعظيم . جاء عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : خلق الله تعالى أربعا بيده العرش . وجنات عدن . والقلم . وآدم . ثم قال لكل شىء كن فكان .

« استكبرت » أ تكبرت من غير استحقاق ؟ .

« أم كنت من العالين » أو كنت مستحقا للعلو فائقا فيه ؟ .

أو أحدث لك الاستكبار ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ؟ .

وقيل إن العالين صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون . مستغرقون بملاحظة

جمال الله تعالى وجلاله ، لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خالق غيره ، لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام .

إبليس : أنا خيرٌ منهُ خلقتني مِن نارٍ وخلقتهُ مِن طينٍ .

« أنا خير منه » قيل هو جواب عن الاستفهام الأخير يؤدى مؤدى أنه كذلك أى هو من العالين على الوجه الأول . وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً فى شيء على الوجه الثانى .

« خلقتنى من نار وخلقته من طين » ذكر النوعين تنبيها على أن المماثلة كافية فضلا عن الأفضلية ولهذا أبهم وفصل وقابل وآثر (خلقتنى وخلقته) دون أنا من نار وهو من طين ليدل على أن المماثلة فى المخلوقية مانعة فكيف إذا انضم إليها خيرية المادة . وفيه تنبيه على أن الآمر كان أولى أن يستنكف فإنه أعنى السجود حق الآمر .

الله : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

« فاخرج منها » فاخرج من الجنة ، واخرج من زمرة الملائكة . وقيل : اخرج من الخلقة التى أنت فيها ، وانسلخ منها ، والأمر للتكوين .

وكان عليه اللعنة يفخر بخلقته ، فغير الله تعالى خلقته ، فاسود بعدما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانيا .

« فإنك رجيم » تعليل الأمر بالخروج ، أى مطرود من كل خير وكرامة . فالرجم كناية عن الطرد لأن المطرود يرجم بالحجارة . أو شيطان : يرجم بالشهب .

« وإن عليك لعنتى » أى إبعادى عن الرحمة . وإن أريد كل لعنة فذاك لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى ، منهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته :

« إلى يوم الدين » يوم الجزاء والعقوبة .

وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست كافية فى جزاء جنايته ، بل هى

انموذج مما سيلقاه مستمرا إلى ذلك اليوم . لكن لا على أنها تنقطع يومئذ بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وافانين العقاب ما تنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل .

إبليس : ربِّ فأنظرنِي إلىَ يوم يبعثونَ .

« رب فأنظرنى » أى أمهلنى وأخرنى .

« إلى يوم يبعثون » أى آدم وذريته للجزاء بعد الموت وهو وقت النفخة الثانية. وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث .

الله : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إلىَ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم .

« فإنك من المنظرين » إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين .

« إلى يوم الوقت المعلوم » الذى قدرته وعينته لفناء الخلائق ، وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول .

إبليس : فبعزتك لأغوينهمْ أجمعينَ . إلاَّ عبادكَ منهمُ المخلَصينَ .

« فبعزتك » فأقسم بعزتك . قسم بسلطان الله عز وجل وقهره ، وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة .

« لأغوينهم أجمعين » أى أفراد هذا النوع بتزيين المعاصى لهم .

« إلا عبادك منهم المخلصين » وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الغواية . وقرىء (المخلِصين) على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى .

الله : فَالحَقُّ والحَقَّ أقُولُ . لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تبِعَكَ مِنهُمْ أجْمَعِينَ . (ص ٧٥ إلى ٨٥) .

« فالحق » فالحق قسمي . أو فالحق أنا . أو أنا الحق .

« والحق أقول » ولا أقول إلا الحق .

على أن الحق إما اسمه تعالى ، أو نقيض الباطل ، عظمه تعالى بإقسامه به .

« لأملأن جهنم » والله لأملأن جهنم .

« منك » أى من جنسك من الشياطين .

« وممن تبعك » فى الغواية والضلالة .

« منهم » من ذرية آدم عليه السلام .

« أجمعين » لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً . لأملأنها من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم ، من أولاد الأنبياء وغيرهم .

أخرج منها

انشق المفسرون فرقا فى معنى قوله سبحانه .

« أَخْرُجْ مِنْهَا . . . » فمن قائل هى بمعنى أخرج من الجنة ، ومن قائل أخرج من السماء ، ومن قائل أخرج من الملائكة ؛ ومن قائل أخرج من رحمتى . وعندى أن هذا خلاف فيما لا خلاف وانشقاق فيما لا انشقاق .

والحق الذى يميل إليه قلبى أن إبليس خرج من كل هذه الأشياء عندما قال له الله سبحانه « أخرج منها » لأن الله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون . إنه سبحانه عندما قال « أخرج » فقد خرج إبليس على الفور ، لأن الارادة الإلهية مرتبطة بقوله سبحانه ، وما دام الله قد قال له أخرج فقد أراد منه الخروج ، فيتحتم خروج إبليس على الفور .

وحين قال سبحانه « منها » فإنما يعنى سبحانه إخراجه من رحمته ، ومتى خرج من رحمته وقع فى لعنته ، لأنه لن يخرج من ملكه سبحانه ، فإخراجه من الرحمة يستلزم دخوله فى اللعنة . ومتى خرج من الرحمة فقد خرج من زمرة الملائكة بالتبعية ، لأنه خرج من الصفة التى خلق منها الملائكة ، ودخل إلى صفة أخرى .

ومتى خرج من زمرة الملائكة فقد خرج من الجنة ، لأن الجنة حل للملائكة حرام على الشياطين . والجنة رحمة الله يرحم بها من يشاء من عباده وإبليس قد خرج من الرحمة .

ومتى خرج من الجنة فقد خرج من السماء ، لأن السماء مسكن الملائكة وهو لم يعد ملاكا .

ومتى خرج من السماء فقـــد أصبح مطلوبا منه ، وتحتم عليه أن يهبط منها إلى الأرض ، وأن يتخذها مأوى له بدلا من السماء .

وهذا ما كان فعلا ، وما حدث بعد ذلك ، عندما أمر الله تعالى الجميع ، آدم وزوجه وإبليس بالهبوط إلى الأرض .

وبذلك تنحل العقدة ، ويذهب الخلاف ، وتظهر الحقيقة فى أمر إبليس .

أنا خير منه

كان إبليس قبل أن ينزل به البلاء ، ملـكا كبيراً مقرباً ، يعلم من الله ما لا يعلم كثير من الملائكة .

ثم جاءته الفتنة من الأنا ، الخبيثة المدمرة ، هناك هـــوى ، وغوى ، وهبط وانحدر انحدارا كبيراً . ولم ينفعه علمه الذى كان عليه ، ولا قربه من الله ، ولا طاعته قبل ذلك لله .

وكانت فتنة إبليس عميقة . . وترجع إلى سببين رئيسيين .

أولهما : أنه تعود ألا يسجد إلا لله ، واستقر فى علمه أن السجود لغير الله شرك وكفر به سبحانه . وعاش ما عاش وهو من الملائكة المقربين ، يعبد الله وحده ويسجد لله وحده .

ثم جاءت إليه الفتنة من هنا . جاءت بشيء غير ما ألف وتعود . جاءت بأمره أن يسجد لمخلوق . « أَأسْجُدُ لمن خلقتَ طيناً ؟ ! » ، كيف إذاً يكون هذا ؟ .

كيف يأمر الله إبليس بالسجود لآدم وآدم مخلوق وليس بخالق ، وآدم عبد مصنوع وليس إلها صانعاً ؟ . أكان ما كان عليه إبليس من السجود لله وحده من قبل باطلا؟ أم أن هناك سراً فوق علم إبليس ؟ . ومن هنا نبتت الفتنة فى قلبه . غاب عنه أن لله أن يأمر من شاء بما شاء ، ابتلاء لعباده أيطيعون أم يعصون ما يؤمرون ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ولذلك اقتضت حكمة الله أن يختبرهم فى الصفة التى هى الأصل الأصيل من صفاتهم ، صفة الطاعة المطلقة لله ، فأمرهم سبحانه بالسجود لآدم لينظر أيطيعون ؟ . فأطاعوا جميعاً إلا إبليس أبى .

والثانية : أنه قام بنفس إبليس أنه خير من آدم ، وذلك بالمفاضلة التى أقامها بين عنصر آدم وعنصره . بين الطين والنار .

ورأى فى نفسه أن النار أشرف من الطين وأرق وألطف وأسمى ، فلا ينبغى أن يسجد الأعلى للأدنى ولكن الأدنى للأعلى ، وأقام فلسفته على هذا . ونطق بذلك وهو يحاور الله ، وساقه كبرهان على رفضه للسجود .

« أنا خيرٌ منهُ خلقتنِي من نارٍ وخلقتهُ من طينٍ » .

وقد أخطأ إبليس فيما ذهب إليه ، أخطأ لأنه عقد المقارنة بين جسم وجسم ، بين الطين والنار . وغفل عن شىء ، غفل عن العنصر الذى يمتاز به آدم عليه ، عن الروح التى هى من الله ، وفيها من صفات الله . وهذا هو سر امتياز آدم عليه وعلى الملائكة .

لقد مكث آدم جسداً لا حراك به ، ملقى فى الجنة ، لا وزن له فى ذاته ، ولذلك لم يأمر الله إبليس ولا غيره من الملائكة أن يسجد لهذا الجسد فى ذلك الطور ، طور الطين الذى لا روح فيه ، ولكن عندما نفخ الله فيه من روحه أوجب عليهم جميعاً السجود لآدم ، السجود للروح التى سرت فى آدم ، لا لجسد آدم الذى ما كان إلا مظهراً لتلك الروح . وإلى ذلك يشير القرآن حيث يقول :

« فإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » ،

أى فإذا أتممت النفخ فيه من روحى ، فقد صار شيئا أعلى منكم فينبغى عليكم جميعاً السجود له . السجود للروح التى هى من الله فى هذا الجسد .

لقد أخطأ إبليس خطأين .

خطأ حينما ظن أنه لا ينبغى السجود لغير الله ، ونسى بذلك أن الله هو الآمر وأنه يجب عليه أن يطيع .

وخطأ عندما فاضل بين نفسه وبين آدم على أساس المفاضلة بين الطين والنار ، ونسى أن السجود بنى على تشريف آدم بنفخ الله فيه من روحه ، وأن السجود كان لتلك الروح الإلهية التى وضعت فيه ، لا للجسد المخلوق من طين . وإنما كان جسد آدم حينئذ مرآة التجلى ، ومظهر الروح ، وعظمة الإبداع .

الملاك العظيم

ينقلب إلى شيطان رجيم ! !

عندما أبى إبليس واستكبر أن يسجد ، ورأى فى نفسه أنه خير من آدم ، أخرجه الله تعالى من رحمته .

وبإخراجه من رحمة الله ، انقلب على الفور ، وتحول من صورة الملاك العظيم إلى صورة الشيطان الرجيم .

وبعد أن كان جميلا صار قبيحا ، وبعد أن كان خيراً خالصا صار شرا خالصا ، وبعد أن كان قريبا من الله صار بعيداً عن الله ، وبعد أن كان فى رحمة الله صار فى لعنة الله .

وكذلك تحول ظاهر إبليس من ملاك جميل إلى شيطان قبيح .

وبلعن الله لإبليس صار ملعونا من أهل السماء ملعونا من أهل الأرض .

وبعد أن كانت السماء مسكنه ، حرمت عليه السماء ، وأرسلت عليه وعلى ذريته من بعد ذلك الشهب تمنعهم من دخولها كلما حاولوا ذلك .

إلا أنه رغم مسخه من صورة الملك إلى صورة الشيطان ، بقيت فيه صفات الملائكة ولكن على أضداد ما عليه الملائكة .

وبيان ذلك أن الملك يسبح الله الليل والنهار ، وهو يكفر الله الليل والنهار .

والملك له القدرة على الطيران من الأرض إلى السماء ، وهو له هذه القدرة فيذهب يحاول استراق السمع من السماء ، إلا أن الشهب ترسل عليه فلا يستطيع .

والملك يستطيع أن يلم بقلب الإنسان ويوحي إليه بالخير ، والشيطان يستطيع أن يلم بقلب الإنسان كذلك ولكن ليوحي إليه بالشر . وهذا ما يسمى بالوسواس أي الايحاء الخفي . وسمي المام الملاك إلهاما وإلمام الشيطان وسواساً للتمييز .

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمْ : إنَّ للشيطانِ لمةً بابنِ آدمَ ، وللملكِ لمةً ، فأمَّا لمةُ الشيطانِ فايعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ ، وأمَّا لمةُ الملكِ فايعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ ، فمنْ وجدَ ذلكَ فليعلمْ أنهُ منَ اللهِ فليحمدِ اللهِ ، ومنْ وجدَ الأخرى فليتعوذْ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثمَّ قرأ الشيطانُ يعدكمُ الفقرَ ويأمركُم بالفحشاءِ . (الترمذي) .

قال ابن العربي « . . . إن الله خلق من كل زوجين اثنين ، فخلق الآدمي والملك والشيطان ، وخلق العقل والشهوة ، وأمر الآدمي ونهاه ، وركب فيه ماركب من هواه ، وحبال الشيطان الهوى ، ومنجاة الإنسان الإيثار للعقل وهو ضد الملك ، والشهوة جند الشيطان ، ولا يزالان يتنازعان ويتباريان ، والقدر من فوق فإذا نزلت العصمة غلب جند الملك وهو العقل ، وتبصر العبد فامتثل وازدجر ، وإذا نزل الخذلان غلب جند الشيطان ، باستيلاء الشهوة وارتكاب المخالفة فهلك العبد ، فأمر الله على لسان رسوله العبد إذا وجد لمة الملك أن يحمد الله على ما وهبه من العصمة ، وإذا وجد الحالة الأخرى أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فإنه يجادله والله يعيذنا منه برحمته » .

هذا ومن الصفات التي بقيت في الشيطان بعد مسخه ويشارك فيها الملائكة الذين

كان منهم صفة الاستتار عن أعيننا ، فهو يرانا ونحن لا نراه ، تماما كالملائكة ترانا ولا نراها . كل هذا لأنه يحمل صفات أصله ، ولكن تحولت فيه إلى الشر .

قال تعالى « ... إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. » (الأعراف ٢٧) .

« إنه يراكم » إن الشيطان يراكم يا بنى آدم .

« هو وقبيله » المراد بهم هنا جنوده من الجن .

وهكذا تحول إبليس إلى شر محض ، ولعنة خالصة .

وخرج من الجنة بأحقاده وآلامه وغيظه ، بسبب إبائه السجود لآدم .

ومن هنا كان بغضه لآدم ، وكرهه لذريته ، لإنهم سبب بلائه ، وسبب خروجه من مكانته التى كان عليها — وكان يتيه بسببها على الملائكة — إلى ما صار إليه من صورة منكرة ذليلة ملعونة .

قال تعالى « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » . (الكهف ٥٠) .

كان من الجن » صار من الجن بالمسخ ، أى أن إبليس كان من الملائكة وأبى أن يسجد فصار من الجن بسبب معصيته .

روى عن ابن عباس أن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلا . . . فرأى أن له بذلك عظمة وشرفا على أهل السماء ، فوقع فى نفسه كبر لم يعلم به أحد إلا الله تعالى ، فلما أمر بالسجود ظهر كبره الذى فى نفسه ، فلعنه الله تعالى إلى يوم القيامة . وقيل : كان من الملائكة والجن قبيلة منهم .

« ففسق عن أمر ربه » فخرج عن طاعته سبحانه .

« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى » أفتتخذونه وأولاده وأتباعه أولياء مجاوزين عنى إليهم ، وتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ؟ ! .

والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد ، فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة .

هذا والذى أميل إليه أن الآية تشير من طرف خفى إلى أن كل الشياطين من نسل إبليس ، لأنها تنعى على الآدميين اتخاذه وذريته أولياء من دون الله . وقد روى أنه أصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس. وهذا ما أميل إليه ، وهذا ما حدث بعد ذلك ، عندما هبطوا جميعا إلى الأرض.هبط آدم وحواء ليكون منهما الناس كافرهم ومؤمنهم وهبط إبليس ليكون منه الجن كافرهم ومؤمنهم .

« وهم لكم عدو » أى أعداء .

« بئس للظالمين بدلا » بئس البدل من الله تعالى للظالمين إبليس وذريته .

وخلق منها زوجها

قال تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. » (النساء : ١) .

« الذى خلقكم من نفس واحدة » هى آدم عليه السلام .

« وخلق منها زوجها » وخلق من آدم زوجه حواء .

وقال « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ... » (الاعراف ١٨٩) .

« هو الذى خلقكم » هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك أصلا .

« من نفس واحدة » هو آدم عليه السلام على ما نص عليه الجمهور .

« وجعل منها » أى من جنسها فمن ابتدائية ؛ والمشهور أنها تبعيضية ، أى من جسدها ، لما يروى أنه سبحانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام اليسرى .

« زوجها » وهى حواء .

« ليسكن إليها » أى ليستأنس بها ويطمئن إليها .

أى ليستأنس آدم بحواء ويطمئن آدم إلى حواء .

وقال « خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... » (الزمر ٦) .

« خلقكم من نفس واحدة » المراد بالنفس آدم عليه السلام .

« ثم جعل منها زوجها » أى حواء ، فإنها خلقت من قصيرى ضلعه عليه السلام اليسرى ، وهى أسفل الأضلاع ، على معنى أنها خلقت من بعضها ، أو خلقت منها كلها ، وخلق الله تعالى لآدم مكانها ، وقد تضمنت الآية ثلاث آيات ، خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم ، وخلق حواء من قصيراه ، وخلق ذريته التى لا يحصى عددها إلا الله عز وجل ! .

وقال « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .... » (الحجرات ١٣) .

« يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى » من آدم وحواء عليهما السلام ، فالكل سواء فى ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب .

وقال « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » . (الليل ٣) .

« وما خلق الذكر والأنثى » أى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من الحيوان المتصف بذلك ، وقيل من بنى آدم .

وقيل المراد بالذكر آدم عليه السلام وبالأنثى حواء رضى الله تعالى عنها .

وعنْ أبى هريرةَ رضى الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : استوصُوا بالنساءِ ، فإنَّ المرأةَ خلقتْ من ضلعٍ ، وإنَّ أعوجَ شىءٍ فى الضلعِ أعلاهُ ، فإنْ ذهبتَ تقيمهُ كسرتهُ ، وإنْ تركتهُ لمْ يزلْ أعوجَ ، فاسْتَوْصُوا بالنساءِ . (البخارى) .

وعنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : منْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فإذَا شهدَ أمراً فليتكلمْ بخيرٍ ، أو ليسكتْ ، واستوصُوا بالنساءِ ، فإنْ المرأةَ خلقتْ منْ ضلعٍ ،وإنْ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاهْ ، إنْ ذهبتَ تقيمهُ كسرتهُ ، وإنْ تركتهُ لمْ يزلْ أعوجَ ، استوصوا بالنساءِ خيراً . (مسلم) .

قالوا : وفيه دليل لما يقوله الفقهاء ، أو بعضهم ، أن حواء خلقت من ضلع آدم ، قال الله تعالى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أنها خلقت من ضلع . وفي هذا الحديث ملاطفة النساء ، والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن ، واحتمال ضعف عقولهن ، وكراهة طلاقهن ، بلا سبب وأنه لا يطمع باستقامتها .

وعنْ أبي هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ : إنْ المرأةَ كالضلعِ ، إذا ذهبتَ تقيمهَا كسرتهَا ، وإنْ تركتهَا استمتعتَ بهَا ، وفيهَا عوج . (مسلم) .

وعنْ أبي هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ : إنْ المرأةَ خلقتْ منْ ضلعٍ ، لنْ تستقيمَ لكَ علىَ طريقةٍ ، فإنِ استمتعتَ بهَا استمتعتَ بهَا وبهَا عوج ، وإنْ ذهبتَ تقيمُهَا كسرتهَا وكسرُهَا طلاقُهَا . (مسلم) .

هذا . . . ومن هذه النصّوص جميعاً ، يتبين لنا أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، وأنها جاءت عوجاء في عواطفها ومشاعرها ، تحاكي في ذلك صفات الضلع الأعوج الذي خلقت منه .

هذا وإليك ما ورد في الكتاب المقدس ، عن كيفيه خلق حواء ، نورده هنا لأنه لا يصادم ما جاء بالقرآن والسنة ، بل يؤيده ويفصله :

« فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما . وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم . فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت .

لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » . (التكوين . الإصحاح الثانى) .

وكذلك خلق الله حواء من ضلع من ضلوع آدم ، فجاءته تسعى فى أحسن صورة تتصور للأنثى . انها النموذج الأول للأنثى بجمالها وكمالها ولطفها ورشاقتها . إنها شىء صنعه الله تعالى بيديه وصبه فى أحسن صورة .

وكان حجم حواء هو حجم آدم ، ستون ذراعا فى السماء ، ولكن تصغره فى الحجم قليلا ، بنسبة ما تصغر الأنثى عن الذكر دائماً .

وكانت حواء عارية تماماً كما كان آدم عاريا تماماً ، ونظر إليها ونظرت إليه . ولكنها لا ترى منه ما ترى الأنثى من الذكر ، ولا يرى منها ما يرى الذكر من الأنثى.

كانا عريانين ، إلا أنه لا يوجد بينهما الشعور بالشهوة ، شأنهم فى ذلك شأن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، يلعب ذكرهم مع أنثاهم ، ولكن لا يشعرون بالشعور الجنسى فيما بينهم .

جمال حواء

سميت حواء بحواء لأنها أم لكل حى ، فهى أم البشر ، وأم الخلق ، والمرأة الأولى ، وأصل الشجرة الآدمية المباركة .

فهى من كل إنسان بمثابة أمه ، ومن حق كل إنسان أن يعرف الصورة التى كانت عليها حواء .

والشىء الذى يقطع أنها كانت أجمل أنثى وجدت إلى يوم القيامة ، أنها زوجة أول إنسان ، وأنها فطرت على أحسن صورة كما فطر آدم فى أحسن تقويم .

وليس معنى الأحاديث التى تشير إلى أفضلية بعض النساء أنهن أجمل من حواء ، كلا بل هى أجمل من بناتها جميعاً إلى يوم القيامة . لأن الشىء الذى خلقه الله بيديه وجعله أصلا للجنس كله ، لابد وأن يكون أجمل من الشىء الذى جاء عن طريق

التناسل والتسلسل . فالأفضلية شيء والجمال شيء آخر . فمن النساء اللاتى جئن من بعد حواء من هن أفضل من أمهن الأولى ، ولكن المقطوع به أنهن لسن أجمل منها .

عن علي رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خيرُ نسائِها مريمُ وخيرُ نسائها خديجة . (البخارى) .

عنْ أنسٍ رضىَ اللهُ عنهُ أنْ النبيَّ صلىَّ اللهُّ عليهِ وسلمَ قالَ : حسبكَ مِنْ نساءِ العالمينَ ؛ مريمُ ابنةُ عمرانَ ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ . (الترمذى) ،

وهذا يشير إلى أفضلية هاتيك النسوة رضى الله عنهن أجمعين ، فهن سيدات نساء الدنيا وأفضلهن على الإطلاق . ولكنهن رغم فضلهن الذى شهد عليه النبى صلى الله عليه وسلم لسن أجمل سيدات الدنيا ، ولا أجمل من حواء أمهن ، بل هى أجمل منهن وأجمل من بناتها جميعاً ، لأن الحسن شيء والفضل شيء آخر ، والتقوى شيء وجمال الصورة شيء آخر كذلك .

فمن جمال حواء الذى تتفوق به على بناتها ، أنها أكبر منهن حجما ، فهى أنثى لرجل بلغ ارتفاعه ستين ذراعاً ، فهى على الحجم الذى يناسب ذلك الارتفاع . ويستتبع ذلك ضخامة أعضائها جميعاً ، فى تناسب وانسجام تام .

وهى جسم سليم من الأمراض لم يذق طعم السقم أبداً .

وهى على أقوى درجة من القوة البشرية النسوية ، لأنها فتاة بكر لم يمسسها بشر ولم يمسسها حزن ولا هم ولا غم .

وهى شيء جعل الله تعالى فيه سر الصنعة الأولى لبنات جنسها كلهن. فهل تكون إلا على أحسن صورة ؟ .

وقد فكرت طويلا فى الصورة التى كانت عليها أمنا حواء عند خلقها لأول مرة ، فوجدت أنها كانت شيئاً غير بناتها ، شيئاً جميلا جداً ، فوق ما نتصور وما يدور بأذهاننا ! .

وقلت فى نفسى إذا كان طول آدم ستين ذراعاً وعمره ألف عام ، وهذا ماسجلته الأحاديث الصحاح المبثوثة فى هذا الكتاب ، فمن البديهى أن حواء على مثل هذا الطول ، إلا أنها تقل عنه بما ينبغى أن تنقصه الأنثى عن الذكر فى الخلقة الطبيعية ، وكذلك ستعيش حواء شيئا فى حدود الألف سنة كما عاش آدم ، ربما أقل وربما أكثر فهذا شيء استأثر به الله تعالى ، ولكن المهم أنها عمرت طويلا كما عمر آدم ! .

وامرأة هذا شأنها من ضخامة الخلقة وطول العمر ، لابد أنها جبلت وخلقت على أسلوب يناسب ألف سنة من الحياة ، وستين ذراعا من العلو ! .

إنها إذا خلقت فى قوة الشباب ... وشباب امرأة لم يصبها داء ، ولم ينزل بها بلاء فى مثل ذلك الحجم لابد وأن يكون المثل الأعلى للشباب والصحة والقوة .

ثم أرشدنى الحديث الآتى إلى الصورة التى كانت عليها أم الخلق :

عنْ أبى هريرةَ عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم : خلقَ اللهُ آدمَ علىَ صورتهِ ، طولهُ ستونَ ذراعاً ، فلمَّا خلقهُ قال : اذهبْ فسلمْ علىَ أولئكَ النفرِ من الملائكةِ جلوس فاستمعْ ما يحيونكَ فإنهَا تحيتُكَ وتحيةُ ذريتكَ ، فقال : السلامُ عليكمْ ، فقالُوا : السلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ ، فزادوه ورحمةُ اللهِ ، فكلُّ منْ يدخُلُ الجنة علىَ صورةِ آدمَ فلمْ يزل الخلقُ ينقصُ بعدُ حتى الآنَ . (البخارى) .

« فكل من يدخل الجنة على صورة آدم » والمعنى أن كل إنسان يدخله الله الجنة يجعله الله على صورة آدم فى الحسن والطول وغير ذلك . ويستنبط من ذلك كذلك ، أن كل من تدخل الجنة من النساء تدخلها على صورة حواء ، لأنه لا يعقل أن تدخل الأنثى على صورة ذكر ، وإنما المعقول أن تدخل الأنثى على صورة الأنثى .

وأن الصورة التى تدخل عليها المرأة الجنة هى صورد أمها الأولى كما أن الصورة التى يدخل عليها الرجل الجنة هى صورة أبيه الأول .

هذا ومن ناحية أخرى تنكشف لنا حقيقة كبرى إذا تأملنا :

« فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن » وهذا من جوامع الكلم الذى يتميز به

كلامه صلى الله عليه وسلم . والمعنى أنه بعد خلق آدم وحواء لم يزل الخلق ينقص فى الصورة والهيأة حتى صار الناس إلى ما هم عليه من صغر الحجم وقصر العمر ، وأن هذا النقص سيستمر حتى تقوم الساعة على فئام الناس ، أى قصار وصغار كما ورد فى الأخبار .

عن ابن مسعود سمعتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : منْ شرارِ الناس منْ تدركهمُ السّاعةُ وهمْ أحياءٌ . (البخارى) .

أدركنا إذا أن المرأة الصالحة تدخل الجنة على صورة أمها حواء . فإذا علمنا أن المرأة من نساء الدنيا إذا دخلت الجنة كانت أجمل من الحور العين كما ورد فى الأخبار الصحاح .

علمنا كذلك أن الصورة التى ستدخل بها نساء الدنيا إلى الجنة ، أنهن يكن أجمل من الحور العين . فإذا كانت هذه الصورة الأخيرة هى نفسها صورة حواء ، فمعنى ذلك أن حواء حين خلقت كانت أجمل من الحور العين !! .

فإذا أمكنك أن تتصور ما عليه الحور من جمال ، ولن تستطيع ، أمكنك أن تتصور ما كانت عليه حواء من جمال ولن تستطيع . . . لأنها كانت أعلى وأحلى من الحور !! .

وهكذا . . . فاقت حواء كل أنثى فى جمالها !!

أسكن أنت وزوجك الجنة

قال تعالى « وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلامِنها رغَداً حيثُ شِئْتُمَا ... » (البقرة ٣٥) .

« و » وبعد أن خلق الله تعالى حواء ليسكن إليها آدم ويأنس إليها .

« قلنا » قال الله تعالى لآدم وحواء .

« يا آدم » تصدير الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر ، وتحريكه لما يخاطب به ، إذ هو من الأمور التى ينبغى أن يتوجه إليها .

« اسكن » أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن ، لا من السكون ترك الحركة .

« أنت وزوجك » الأمر للإباحة أو للوجوب . اتخذ أنت وحواء من الجنة مسكنا لكما ، استمتعا معا ، واستأنس بها ولتستأنس بك فى ربوعها .

« الجنة » هى دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة ، لأنها المتبادرة عند الإطلاق ولسبق ذكرها فى السورة .

وفى الحديث « قالَ رسولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ : يجمعَ اللهُ تباركَ وتعالىَ الناسَ ، فيقومُ المؤمنونَ حتىّ تزلفَ لهمُ الجنةُ ، فيأتونَ آدمَ فيقولونَ : يا أبانا استفتحْ لنَا الجنةَ ، فيقولُ : وهلْ أخرجكمْ منَ الجنةِ الاخطيئةُ أبيكمْ آدمَ ؟ لستُ بصاحبِ ذلكَ ، اذهبُوا إلىَ ابنى إبراهيمَ خليلِ اللهِ ... » (مسلم) .

« تزلف لهم الجنة » تقرب ، كما قال الله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين) أى قربت .

وهذا الحديث يشير كما يشير غيره من الأخبار إلى أن الجنة هى جنة الثواب ، التى وعد الرحمن عباده بالغيب .

« وكلا منها رغدا حيث شئما » أى من مطاعمها ، من ثمار وغيرها ، فلم يحظر عليهما شيئا إلا ما سيأتى ، والرغد هو الهنى الذى لا عناء فيه ، أو الواسع . كانوا فى رزق واسع كثير . من أى مكان من الجنة شئتما .

وقال تعالى « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِن حَيْثُ شِئْتُمَا ... » . (الأعراف ١٩) .

« ويا آدم » أى قال يا إبليس اخرج ، ويا آدم اسكن لأن ذلك فى مقام الاستئناف . واسكن ، من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار .

أنت « وزوجك الجنة » اتخذا من الجنة مسكنا لكما .

« فكلا من حيث شئتما » لتعميم التشريف ، والإيذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام فى حق الأكل .

وكذلك أباح الله تعالى لآدم وحواء سكنى الجنة كلها ، والتمتع بمآكلها ومشاربها ، وقصورها وأنهارها ، والتلذذ بما فيها من لذات ونعيم .

ولا تقربا هذه الشجرة

أباح الله لآدم وحواء الأكل من ثمر أشجار الجنة كلها . وحذرهم من الاقتراب من هذه الشجرة ، وعينها لهم ، وحددها ، وحذرهم من الأكل منها ، ونهاهم عن مجرد الاقتراب منها ، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذه الشجرة هى شجرة الخلد كما سماها إبليس ، وسر النهى عنها سيظهر فيما بعد.

قال تعالى « ... وَلاَ تَقرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » . (البقرة ٣٥) .

« ولا تقربا هذه الشجرة » ظاهر هذا النهى التحريم ، والمنهى عنه الأكل من الشجرة ، إلا أنه سبحانه نهى عن قربانها مبالغة ، ولهذا جعل جل شأنه العصيان المرتب على الأكل مرتبا عليه . ووقع خلاف فى هذه الشجرة فقيل وقيل ، والأولى عدم القطع والتعيين ، كما أن الله تعالى لم يعينها باسمها فى الآية ، ولا أرى ثمرة فى تعيين هذه الشجرة . والشجر ما له ساق أو كل ما تفرع له أغصان وعيدان .

« فتكونا من الظالمين » الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية ، أو نقصوا حظوظهم بمباشرة مايخل بالكرامة والنعيم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .

هذا وينبغى العلم أن هذه الشجرة ليست فى حجم أشجار الدنيا،ولكنها فى حجم أشجار الجنة ، لأنها شجره من أشجار الجنة . وإليك بعض أوصاف لأشجار الجنة لتعلم منها إلى أى مدى بلغت هذه الشجرة من الضخامة .

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ فى الجنة لشجرةً يسيرُ الراكبُ ، الجوادَ المضمرَ السريعَ ، مائةَ عامٍ ما يقطعُها . (البخارى) .

« الجواد » هو الفرس البين الجودة السريع الجرى .

« المضمر » هو الذى يتمرن أياما أو أشهرا على التعب حتى يخف لحمه ويشتد عصبه .

فانظر بعد ذلك كم كانت هذه الشجرة من الضخامة ، إذا كانت أشجار الجنة بحيث يجرى الحصان السريع فيها مائة عام لا يقطعها ؟ ! .

وقال « ... وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » . (الأعراف ١٩) .

وهى نفس ما ورد فى سورة البقرة .

لقد كانت شجرة ما من أشجار الجنة ، نهاهما ربهما عن الاقتراب منها .

إن هذا عدو لك ولزوجك

قال تعالى « فَقُلْنَا يا آدمُ إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فلايخرجنكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ » . (طه ١١٧) .

« فقلنا » عقيب اباء إبليس السجود لآدم وإظهاره لذلك ، اعتناء بنصح آدم عليه السلام .

« يا آدم » يا آدم ، يا حواء .

« إن هذا » إن هذا الشيطان ، إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت .

« عدو لك ولزوجك » ولا يخفى ما فى التعبير بزوجك دون حواء من مزيد التنفير والتحذير منه . واختلف فى سبب العداوة فقيل بجرد الحسد وقيل : كونه شيخا جاهلا وكون آدم عليه السلام شابا عالما ، وقيل : تنافى الأصلين فإن اللعين خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين وحواء خلقت منه . وقيل وقيل . . .

والذى أميل إليه أن سبب العداوة هو أن آدم عليه السلام هو سبب بلية إبليس ، وأن خلقه وأمر الملائكة بالسجود له هو سبب فتنته . وكانت تلك الفتنة سبباً فى لعن إبليس وطرده من الجنة وشقائه إلى الأبد . فسخط إبليس على ربه حين لعنه وطرده وسخط على آدم حين كان هو سبب هذه المصيبة التى نزلت به .

أما سخطه على ربه فظهر فى كفره به سبحانه ، واعتراضه على قضائه ، ومحاولته إقامة الدليل على عدم استحقاق آدم لهذا التكريم كله . وهذا هو أقصى ما يستطيع أن يفعله مع الله ، لأنه يعلم تماماً أن الله قوى وأنه إن شاء محقه فى أقل من لمح البصر فأقصى ما يستطيعه مع الله هو أن يكفر به ويعترض على قضائه ، وهذا هو أسلوب الكفار بالله تعالى دائماً !.

أما سخطه على آدم ، فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ، لأن آدم مخلوق مثله ، ضعيف مثله ، فيمكن إذاً أن ينتقم منه ، لأن المماثلة فى الضعف قائمة بينهما ، فالانتقام منه ممكن ، والكيد لذريته شىء مستطاع .

هذا فى رأيى هو سبب العداء المستقر فى نفس الشيطان نحو آدم . إنه إحساسه دائماً أنه سبب بليته وسبب مصيبته .

« فلا يخرجنكما » فلا يكونن سبباً لإخراجكما .

« من الجنة » وهذا كناية عن نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان فى إخراجهما منها .

« فتشقى » فتتعب بمتاعب الدنيا ، وهى لا تكاد تحصى ولا يسلم منها أحد .

لقد كانت حياتهما فى الجنة نعيما ولذة وأنسا كلها .

من أجل ذلك حذرهما الله من إبليس ، ونصحهما أن يتسبب فى إخراجهما مما كانا فيه .

كيف كانت حياتهما هذه التى استوجبت تلك النصيحة ؟ .

حياة آدم وحواء فى الجنة

قال تعالى «إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى». (طه ١١٨ : ١١٩).

«إن لك ألا تجوع فيها» لا يمسك فيها يا آدم جوع، ولا نقص من الثمرات فيها.

«ولا تعرى» وإن لك فيها عدم العرى. فيها ما شئت من ملابس وزينة.

«وأنك لا تظمأ فيها» ولا تجد فيها ظمأ يا آدم.

«ولا تضحى» ولا تصيبك الشمس بحرها.

وأياما كان فالمراد نفى أن يكون بلا منزل. والجملة تعليل لما يوجبه النهى فإن اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادىء البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها. والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب، وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى؛ إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره سبحانه عنها، ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها. ومعنى (أن لا تجوع) إلخ أن لا يصيبه شىء من الأمور الأربعة أصلا، فإن الشبع والرى والكسوة والسكن قد تحصل بعد عروض أضدادها، وليس الأمر فيها كذلك، بل كلما وقع فيها شهوة وميل إلى شىء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة، على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى الشجرة.

عنْ أبى هريرةَ عنِ النبى صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أعددتُ لعباديَ الصالحينَ مالاَ عينٌ رأتْ، ولاَ أذنٌ سمعتْ، ولاَ خطرَ علىَ

قلب بشرٍ ، مصداقُ ذلكِ في كتابِ اللهِ (فلا تعلمُ نفس ما أُخفيَ لهمْ منْ قرةِ أعينٍ جزاءً بمَا كانُوا يعملونَ) . (مسلم) .

لقد كانا في رضوان الله ، وفي جوار الله ، وفي جنة الله ، ينعمان بالجنة ويأكلان من ثمارها ، ويأويان إلى ظلالها ، ويشربان من أنهارها ، ولم يكن يخطر ببالهما أن هناك في الغيب ما يعكر صفوهم .

ويكفي قوله سبحانه في وصف النعيم الذي كانوا فيه قوله « فأخرجهما مما كانا فيه » تأمل هذه الجملة تدرك إلى أي مدى كان ذلك النعيم ! .

فَنَسِيَ ولم نجد له عزما

وعاش آدم وحواء في الجنة ما شاء الله . ولم يكن يخطر على قلبيهما غير الشعور بالسعادة ، والحب القائم بينهما في براءة وجمال .

وطال عليهما الأمد في نعيم الجنة وملاذها ، ونسى آدم ، ونسيت حواء ، أمر هذه الشجرة المحرمة عليهما . ولم يعودا يذكران من أمرها شيئاً .

ونسى آدم ، ونسيت حواء ، على مر الأيام ، أن الله نهاهما عن الاقتراب من الشجرة . وذهب يسير هو وحواء قريبا منها . ووجد إبليس أن الفرصة قد حانت ليكيد لهما .

وكان إبليس يعلم أن آدم وحواء يتصاحبان كما تتصاحب الأطفال ، وأنهما لا يعلمان من أمر العورات والجنس شيئاً ، وأنه لا يرى منها عورتها ولا ترى منه عورته ، وأن الله قد حجب عنهما عوراتهما . فرأى أن الفرصة قد حانت لتنكشف عنهما تلك الحجب . ويكون بينهما ما يكون من الشوق والميل بين الذكر والأنثى .

هنالك بدت لهما الشجرة كأجمل ما تكون من الجمال والروعة . بدت ثمارها شهية بهية ، وازدانت في أعينهما ، وبدءا يفكران في الأكل منها .

لقد ذاقا ما شاءا من أشجار الجنة ، لكن هذه بالذات ، هذه الفاكهة المحرمة ، يجب أن يتذوقاها .

لقد نسيا ما أمرهما ربهما بشأنها . نسيا بحكم مرور الوقت كما هي عادة الإنسان.

قال تعالى « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » . (طه ١١٥) .

« ولقد عهدنا إلى آدم » ولقد وصينا آدم وأمرناه.ووصينا حواء كذلك وأمرناها.

« من قبل » من قبل هذا الزمان .

« فنسى » فنسى العهد ولم يهتم به ولم يشتغل بحفظه حتى غفل عنه ، والعتاب جاء من ترك الاهتمام ، ومثله عليه السلام يعاتب على مثل ذلك . والمراد فترك ماوصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها . وقيل : المنسى الوعيد بخروج الجنة إن أكل . وقيل قوله تعالى : (إن هذا عدو لك ولزوجك) .

وقرىء (فنسى) بضم النون وتشديد السين أى نساه الشيطان .

عن أبيّ بن كعب أنهُ سمعَ رسولَ صلى الله عليه وسلمَ يقولُ : إنَّ موسى قال لفتاهَ : آتنا غداءنَا ، قال : أرأيتَ إذْ أوينَا إلى الصخرةِ ؟ فإنى نسيتُ الحوت ، وما أنسانيهُ إلاَّ الشيطانُ أنْ أذكرهُ ، ولم يجدْ موسى النصبَ حتّى جاوزَ المكانَ الذى أمرَ اللهُ به . (البخارى) .

« ولم نجد له عزما » تصميم رأى وثبات قدم فى الأمور .

وقيل لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة .

فوسوس لهما الشيطان

وجاء إبليس يسعى إليهما ... تماما كما يسعى إلى ذريتهما من بعدهما :

قال تعالى « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ

إلا أنْ تكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إني لكُمَا لمَنَ النَّاصِحِينَ. فدلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ...» . (الأعراف ٢٠ : ٢٢).

« فوسوس لهما الشيطان » ألقى إليهما الوسوسة وهى فى الأصل الصوت الخفى المكرر ، وتطلق على حديث النفس أيضاً .

« ليبدى لهما » ليظهر لهما . ولا يبعد أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة .

« ما ووري عنهما من سوءاتهما » ماغطى وستر عنهما من عوراتهما وكانالا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وكانت مستورة بالنور .

« وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة » أى الأكل منها .

« إلا أن تكونا ملكين » لئلا تكونا ملكين . وقرىء (ملِكين) بكسر اللام .

« أو تكونا من الخالدين » الذين لا يموتون أصلا أو الذين يخلدون فى الجنة .

« وقاسمهما » أقسم لهما . وقيل : قالا له : أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين ؟ .

« إنى لكما لمن الناصحين » وأقسم لهما بذلك .

« فدلاهما » أى حطهما عن درجتهما ، وأنزلهما عن رتبه الطاعة إلى رتبة المعصية فهو من دلى الدلو فى البئر . وقيل أن معناه أطمعهما ، وأصله من تدليه العطشان شيئا فى البئر فلا يجد ما يشفى غليله .

« بغرور » بما غرهما به من القسم . وسبب غرورهما على ما قاله غير واحد ، أنهما ظنا أن أحدا لا يقسم بالله تعالى كاذباً !! .

ذهب كثير من المحققين أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعا ولا ظنا . وإنما أقدما على المنهى عنه لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه ، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال . ولعل كلام اللعين على هذا من قبيل المقدمات الشعرية ، أثار الشهوة حتى غلبت ، ونسى معها النهى فوقع الإقدام من غير روية . وقيل : يمكن أن يقال إن اللعين كما وسوس لهما بقوله (ما نهاكما) إلخ فلم

يقبلا منه عدل إلى اليمين على ما قال سبحانه (وقاسمهما) فلم يصدقاه أيضاً فعدل بعد ذلك إلى شيء آخر وكأنه أشار إليه سبحانه بقوله تعالى (فدلاهما بغرور) وهو أنه شغلهما باستيفاء اللذات ، حتى صارا مستغرقين بها ، فنسى النهى كما يشير قوله تعالى « فنسى ولم نجد له عزما » .

وقال تعالى « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ » . (طه ١٢٠) .

« يا آدم » ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ، ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذى يشعر بالنصح .

« هل أدلك » هل أرشدك .

« على شجرة الخلد » بمعنى شجرة الخلد ، شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا .

« وملك لا يبلى » أى لا يفنى أو لا يصير باليا خلقا . قيل : إن هذا من لوازم الخلود فذكره للتأكيد وزيادة الترغيب .

إن الله يريد يا آدم أن يمنعكما من هذه الشجرة لأنه يريد أن تموتا ، ولئن متما ذهب عنكما هذا النعيم الذى أنتما فيه ، وهذا الملك الذى لا يبلى الذى تنعمون فيه .

وهنا أخبراه أن الله نهاهما عن تلكما الشجرة بالذات ، فأجابهما فى دهاء « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ما حرم الله عليكما هذه الشجرة إلا ليمنعكما أن تكونا ملكين تملكان هذه الجنة إلى الأبد ، وإلا ليمنعكما من الخلود فيها .

فلما رآهما ينظران إليه فى ريبة ، كأنهما لا يصدقانه أقسم لهما ليؤكد دعواه « إنى لكما لمن الناصحين » ما أردت إلا نصحكما ، وإنى لكما لصديق حميم .

وزين إبليس لآدم وحواء الأكل من الشجرة وحدثتهما أنفسهما أن يأكلا منها .

فلما ذاقا الشجرة

واقترب آدم وحواء من الشجرة ، فازدادت جمالا فى أعينهما .

أنساهما الشيطان أن الله نهاهما عن الاقتراب منها .

واشتدت رغبتهما فى تذوق ثمارها .

وتناولا من ثمرها وأكلا .

قال « فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ .. » (الأعراف ٢٢) .

فلما أكلا منها أكلا يسيرا. فلما ذاق آدم وذاقت حواء ثمر الشجرة المحرمة عليهما .

لقد كانت لحظة رهيبة فاصلة فى الكون ، نسى فيها آدم نصح الله له ونسيت فيها حواء نصح الله لها.

وانتصر الشيطان على آدم وحواء لأول مرة ، وأفلح كيده .

هذا ولم يشر القرآن الكريم إلى أيهما بدء بالأكل ، أو أغرى صاحبه بالأكل من الشجرة المحرمة .

أهو آدم أكل ثم تبعته حواء ، أم حواء أكلت ثم تبعها آدم ، أم أنهما أكلا سويا وفى وقت واحد ؟ .

إلا أن الحديث الشريف يشير من بعيد إلى أن حواء هى التى بدأت ، وأغرت آدم بالأكل وإن كان لم يقطع بذلك .

عنْ أبى هريرةَ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : لوْلاَ بنوإسرائيلَ لمْ يَخْنَزِ اللحمُ ، ولوْلاَ حواءُ لم تخنْ أنثى زوجهَا . (البخارى) .

« لم يخنز » لم ينتن .

وعن قتادة : كان المن والسلوى يسقط على بنى إسرائيل ، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كسقوط الثلج ، فيؤخذ منه بقدر ما يُغْنى ذلك اليوم إلا يوم الجمعة ،

فإنهم يأخذون له والسبت ، فإن تعدوا إلى أكثر من ذلك فسد ما ادخروا ، فكان ادخارهم فسادا للأطعمة عليهم وعلى غيرهم .

وفى الحلية لأبى نعيم عن وهب بن منبه قال : وجدت فى بعض الكتب عن الله تعالى : لولا أنى كتبت الفناء على الميت لحبسه أهله فى بيوتهم ، ولولا أنى كتبت الفساد على الطعام لخزنته الأغنياء عن الفقراء .

والذى يميل إليه قلبى فى معنى « لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم » أنه بمعنى : لولا ميل الأغنياء إلى اختزان الطعام عن الفقراء لم يكتب الله النتن والفساد على الأطعمة، وبنو إسرائيل إشارة إلى محبى المال ، واللحم نيابة عن الأطعمة كلها .

« ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » سميت بذلك لأنها أم كل حى ، أو لأنها خلقت من ضلع آدم صلى الله عليه وسلم القصيرى اليسرى وهو حى فى الجنة ، ومعنى خلقت أخرجت كما تخرج النخلة من النواة . ومعنى لولا حواء لم تخن أنثى زوجها إنها دعت آدم إلى الأكل من تلك الشجرة .

وقالَ رسولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ : لوْلا َ بنُو إسرائيلَ لمْ يخبثِ الطعامُ ولمْ يخنزِ اللحمُ ، ولوْلا َ حواءُ لمْ تخنْ أنثـى زوجهَـا َ الدهر (مسلم) .

« لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر » أى لم تخنه أبدا ، ومعنى هذا الحديث أنها أم بنات آدم فأشبهنها ، ونزع العرق ، لما جرى لها فى قصة الشجرة مع إبليس فزين لها أكل الشجرة ، فأغواها ، فأخبرت آدم بالشجرة فأكل منها .

وعنْ أبى هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : لوْلا َ حواءُ لمْ تخنْ أنثى زوجهَـا الدهرَ . (مسلم) .

وهذه النصوص كلها تشير إلى أن حواء هى التى بدأت بالأكل ، أو على الأقل هى التى زينت وأغرت آدم أن يقدم على الفعلة .

هذا وإليك ما ورد فى الكتاب المقدس عن هذه المسألة : « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت

من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل . . » (تكوين . الإصحاح الثالث) .

هذا وليس المهم فى الأمر أن نعرف من البادىء منهما أو من الذى أغوى صاحبه وإنما المهم أن نعلم أنهما أكلا من الشجرة ، هو وهى ، وهذا ما قطع به الكتاب الكريم .

بدت لهما سوءاتهما

فما أن أكلا من الشجرة ، ودخلت ثمارها إلى جوفهما حتى تحركت فيهما الشهوة الجنسية ، ونظر آدم إلى حواء ، ونظرت حواء إلى آدم ، ورأت منه ورأى منها .

وكان بينهما من الشعور ما يكون بين كل ذكر وأنثى يخلوان إلى بعضهما البعض .

ولعله صلى الله عليه وسلم كان يومىء إلى هذا المعنى حين قال « ... ألاَ لاَ يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلاَّ كانَ ثالثهمَا الشيطانُ ... » . (الترمذى) .

يعنى بالوسوسة ، وتهييج الشهوة ، ورفع الحياء ، وتسهيل المعصية ، وليس هناك رادع إلا خوف الله .

نعم لقد كان آدم فى تلك اللحظة يخلو بحواء ، وكانت حواء تخلو بآدم ، وكان الشيطان ثالثهما ، فعلا وحقيقة ووجوداً ، لا قولا ووسوسة فحسب .

وما تكرر هذا المنظر فى بنى آدم وبناته من بعده ، إلا كان الشيطان ثالثهما .

كان آدم عاريا تماماً ، وحواء عارية تماماً ، والشيطان ثالثهما .

لقد كانت هذه هى اللحظة التى بلغ فيها آدم مبلغ الرجال ، وبلغت فيها حواء مبلغ الأنثى .

قال تعالى « ... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا ... » (الأعراف ٢٢) .

« بدت لهما سوءاتهما ، تهافت عنهما لباسهما ، فابصر كل منهما عورة صاحبه

فاستحيا . ثم السوأة كناية عن الفرج ، أى ظهر لهما فرجاهما ، والضمير يرجع إلى آدم وحواء .

هذا وليس الجديد فى الأمر بعد ذوق الشجرة هو ظهور عورتهما ، فإن ذلك كان قبل ذلك فليس فيه من جديد ، وإنما الجديد والذى هو معنى ما ورد فى الآية الكريمة ، هو أن كل منهما رأى فرج صاحبه بشعور جديد ، شعور الشهوة والرغبة التى تكون بين كل ذكر وأنثى . هذا هو الجديد فى الأمر ، وهذا هو ما ترتب على الأكل من الشجرة .

وقال تعالى « فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » (طه ١٢١) .

« فأكلا منها » أى أكل هو وزوجته من الشجرة التى سماها اللعين شجرة الخلد .

« فبدت لهما سوءاتهما » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما .

وطفقا يخصفان عليهما

من ورق الجنـــة

قال تعالى « .. وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... » (الأعراف ٢٢) .

« وطفقا » وأخذا وجعلا .

« يخصفان » يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة . وأصل معنى الخصف الخرز فى طاقات النعال ونحوها بالصاق بعضها ببعض. يؤلفان الورق ويخصفان بعضه إلى بعض .

« عليهما » على سوآتهما أو على بدنهما .

« من ورق الجنة » يجمعان ورقة من هنا وورقة من هناك ويجعلانها سترا يستر فرجيهما .

وقال « ... وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... » (طه ١٢١) .

وقد مر تفسيره .

لقد بدء آدم وحواء يشعران لأول مرة ، بالحياء من ظهور عورتهما ، وأحسا أن هذا شيء يجب ستره ، وأنهما أصبحا وفى قلبهما شعور جديد .

فماذا بعد هذا ؟ .

وعصى آدم ربه فغوى

قال تعالى « ... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ... » (طه ١٢١) .

« وعصى آدم ربه » بما ذكر من أكل الشجرة .

« فغوى » ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود ، أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة ، أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقيل : غوى أى فسد عليه عيشه .

وكذلك عصت حواء ربها فغوت ، وقال بعضهم : إنه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ، ولذا طوى ذكر النساء فى أكثر مواقع الكتاب والسنة .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : احتجَّ آدمُ وموسى عليهما السلامَ عندَ ربهمَا ، فحجَّ آدمُ موسىَ ، قالَ موسىَ : أنتَ آدمُ الذى خلقكَ اللهُ بيدهِ ونفخَ فيكَ منْ روحهِ ، وأسجدَ لكَ ملائكتهُ ، وأسكنكَ فى جنته ثمَّ أهبطتَ الناسَ بخطيئتكَ إلىَ الأرضِ ؟ ! فقالَ آدمُ : أنتَ موسىَ الَّذى اصطفاكَ اللهُ برسالته وبكلامهِ ، وأعطاكَ الألواحَ فيهَا تبيانَ كلِّ شىْءٍ ، وقربكَ نجيًّا ، فبكمْ وجدتَ اللهَ كتبَ التوْراةَ قبلَ أنْ أخلق ؟ .

قالَ مُوسَى : بأربعينَ عاماً ، قالَ آدمُ : فهلْ وجدتَ فيهَا وعصَى آدم ربهُ

فغوى ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : أفتلومُنى علىَ أنْ عملتُ عملاً كتبهُ اللهُ علىَّ أنْ أعملهُ قبلَ أنْ يخلقنِي بأربعينَ سنةً ؟ قالَ رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَّ : فحجَّ آدمُ موسَى . (مسلم) .

ومعنى كلام آدم : أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب علىّ قبل أن أخلق وقدر علىّ فلابد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر فلم تلومنى على ذلك ؟ ولأن اللوم على الذنب شرعى لا عقلى ، وإذ تاب الله تعالى على آدم وغفر له زال عنه اللوم ، فمن لامه محجوجا بالشرع ، فإن قيل : فالعاصى منا لو قال هذه المعصية قدرها الله علىّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقاً فيما قاله ؟ فالجواب أن هذا العاصى باق فى دار التكليف ، جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة ، واللوم والتوبيخ وغيرها ، وفى لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل ، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت ، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجه إلى الزجر ، فلم يكن فى القول المذكور له فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل ، والله أعلم .

وقد اختلفوا فى أمر معصية آدم عليه السلام . هل كانت منه وهو نبى أو لم يكن وقتها نبيا ؟ . وهل كانت منه عن عمد أم عن نسيان ؟ .

والحقيقة أن آدم عليه السلام لم يكن وقت وقوع المعصية نبيا ، بل كان على الفطرة الطيبة التى فطر الله الناس عليها . كان على خلق أهل الجنة ، خيراً خالصاً ، لم يكن يعرف ما هو الشر وما هو الخطأ ، لأنه لم يذق طعمهما بعد . ومن هنا استطاع إبليس أن يدخل عليه ما شاء من كيده . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن النبوة لا مكان لها فى الجنة وإنما مكانها فى الأرض ، إذ ما معنى النبوة فى الجنة ، وعلى من يكون آدم فيها نبياً وهى دار ثواب لا دار تكليف ؟ . إن النبوة تكليف وإرشاد وهداية وجهاد ، وهذه المعانى كلها مكانها فى الأرض التى هى دار التكليف والجهاد والطاعة والدعوة ، أما الجنة حيث كان آدم وقت المعصية ، فلا مجال فيها

لكينونة النبوة ، لأن النبوة شيء لا معنى له فى مكان هو فى غير حاجة إليها .

وأما نبوة آدم فبدأت عندما هبط إلى الأرض ، ونزل إلى دار التكليف ، إنها فى هذه الحالة شيء طبيعى مطلوب .

وأما البحث عما دفع آدم عليه السلام إلى المعصية ، وهل كانت منه عن عمد أو عن نسيان ، فالجواب عليه أوضح من أن يجاب عليه ، وقد تولى الله ذلك بقوله سبحانه « فنسى ولم نجد له عزما » ، وهذا ظاهر فى كون المعصية وقعت منه عن نسيان فى غمرة من زينة الجنة وزخرفها .

والخلاصة أن آدم وحواء كانا على الفطرة ، لا يعرفان الخير من الشر .

وأن آدم وقتها لم يكن نبيا .

وأن ما حدث كان عن نسيان .

... فَغَـــوَى

قال تعالى « ... فَغَوَى » . (طه ١٢١) .

كيف غوى آدم وكيف غوت حواء ، حين وقعت منهما المعصية ، حين أكلا من الشجرة المحرمة ؟ .

ثم ما هو الغى ؟ .

الغى هو الضلال . ومعنى « فغوى » أى فضَل آدم وضلت حواء .

إنها مرحلة جديدة فى حياة آدم ، وفى حياة حواء

لقد كانا قبل هذا البلاء فى نعيم لا يعكر صفوه شيء ، إذا اشتهيا شيئاً من الجنة جاءهم يسعى ، وإذا رغبا فى أمرٍ كان بين أيديهم .

وكانت نفوسهم راضية لا تسخط لأنهم فى رضوان الله ، آمنة لا تخاف لأنها مؤمنة من الله ، صافية لا كدورة فيها لأنها خير خالص لم يخالطه شر أبدا .

فلما قضى الأمر ووسوس لهما الشيطان ، قبلا منه مازين لهما ، لأنهما لا يفرقان بين الخير والشر .

وكان هذا بداية التغير فى نفسيهما ، وخالط قلبهما شىء جديد لا عهد لهما به ، شىء اسمه الوسواس . ثم كان ما كان ، وأكلا ، وذاقا ، وتهافت عنهما لباسهما ، ورأى كل منهما من صاحبه ما لم يك يرى من قبل ! .

ودب إليهما الحياء من ظهور عورتهما . . . وكان ذلك شعور جديد عليهما كذلك .

وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وكان هذا أول عمل لهما يقومان به فى تعب وألم ... وكان ذلك شعور جديد آخر ، ينضم إلى المشاعر السابقة التى ولدت فيهما ولم يكن لهما بها عهد .

وانسابت مشاعر الندم والحيرة إليهما ، ووقعا فى حيص بيص .

ماذا يفعلان ؟ . وكيف يستتران ؟ . وأين يذهبان .. حياء من الله ؟ .

إن كل شىء يبدو فى أعينهما كأنه تغير عن ذى قبل .

لم يعود يحسان بالرضى والطمأنينة التى كانا عليها. لقد انفتحت أعينهما على الخير والشر ، وبدآ يعرفان أن هناك ما يسمى بالفعلة السيئة ، وما يسمى بالفعلة الحسنة.

واستبد بهما الألم . . . ومضى زمان طويل على هذا الأمر ، وهما لا يدريان ماذا يفعلان .

وتألم آدم وتألمت حواء .

وشقى آدم وشقيت حواء .

وغوى آدم وغوت حواء .

وكانت آلامهما ترجع إلى الحرمان بعد العطاء ، وإلى نار الهجر بعد الوصال .

لقد تركهما ربهما بعيداً ، تركهما إلى أنفسهما ، فأحسا بالسلب ، واختفى من فؤادهما الرضى الذى كان يغمرهما .

وبدا فى وجهيهما المنيرين أثر المعصية ، فاختلف ظاهرهما كما اختلف باطنهما من قبل .

واستبد بهما الندم وأحاط بهما الألم .

وانهمرت دموعهما ، وعرفا لأول مرة البكاء، وسالت على خدودهما قطرات الدمع الحارة .

وجعلا يتلاومان ، وبينما هما يتلاومان ...

وناداهما ربهما

قال تعالى « ... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ » . (الأعراف ٢٢) .

« وناداهما ربهما » بطريق العتاب والتوبيخ .

« ألم أنهكما » قائلا لهم ألم أنهكما .

« عن تلكما الشجرة » إشارة إلى الشجرة التى نهيا عن قربانها .

« وأقل لكما » أى ألم أقل لكما ؟ .

« إن الشيطان لكما عدو مبين » أى ظاهر العداوة . وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ، كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى .

واستدل بعضهم بالآية على أن مطلق النهى للتحريم لما فيها من اللوم الشديد مع الندم والاستغفار المفهوم مما يأتى . والأكثرون على أن النهى هنا للتنزيه ، وندمهما واستغفارهما على ترك الأولى ، وهو فى نظرهما عظيم ، وقد يلام عليه أشد اللوم إذا كان فاعله من المقربين

والقول المشار إليه هو قوله سبحانه « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ... » .

لقد كان هذا النداء من قبل الرب تبارك وتعالى بالنسبة لآدم وحواء رحمة من الله تداركتهما بعد أن كانا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وآلام متراكمة ، وأحزان متواصلة .

إن الله سبحانه أراد أن يرحمهما ، رغم ما كان منهما ، فناداهما وهما فى حيرتهما وحزنهما .

وسمع آدم النداء من قبل الرب تبارك وتعالى ، وسمعت حواء ، وأقبلا على الله إقبال من استبد به الظمأ على الماء .

ربنا ظلمنا أنفسنا

قال تعالى « فَتَلَقَّى آدمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . (البقرة ٣٧) .

« فتلقى آدم من ربه كلمات » المراد بتلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها ، فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأحبة — إذا قدم بعد طول الغيبة — لأنهم لا يدعون شيئا من الإكرام إلا فعلوه ، وإكرام الكلمات الواردة من الحضرة الأخذ والقبول والعمل بها . وفى التعبير - بالتلقى - إيماء إلى أن آدم عليه السلام كان فى ذلك الوقت فى مقام البعد .

والمشهور أن هذه الكلمات هى (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا) الآية .

« فتاب عليه » التوبة أصلها الرجوع ، وإذا أسندت إلى العبد كانت - كما فى الاحياء - عبارة عن مجموع أمور ثلاثة - علم - وهو معرفة ضرر الذنب ، وكونه حجابا عن كل محبوب ، وحال يثمره ذلك العلم ، وهو تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، ونسميه ندما . أو عمل يثمره الحال . وهو الترك والتدارك . والعزم على عدم العود ، وكثيراً ما تطلق على الندم وحده لكونه لازما للعلم مستلزما للعمل . وفى الحديث « الندم توبة » وطريق تحصيلها تكميل الإيمان بأحوال الآخرة وضرر المعاصى فيها .

وإذا أسندت إليه سبحانه كانت عبارة عن قبول التوبة والعفو عن الذنب ونحوه أو التوفيق لها والتيسير لأسبابها بما يظهـــر للتائبين من آياته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته ،حتى يستشعروا الخوف فيرجعوا إليه ، وترجع فى الآخرة إلى معنى التفضل والعطف ، ولهذا عديت ـ بعلى ـ .

ولم يقل جل شأنه ـ فتاب عليهما ـ لأن النساء تبع يغنى عنهن ذكر المتبوع .

« إنه هو التواب » إشارة إلى قبوله التوبة كلما تاب العبد . ويحتمل أن ذلك لكثرة من يتوب عليهم .

وجمع بين وصفى كونه توابا وكونه رحيما إشارة إلى مزيد الفضل .

« الرحيم » إشارة إلى أن قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب بل على سبيل الترحم والتفضل ، وأنه الذى سبقت رحمته غضبه ، فيرحم عبده فى عين غضبه ـ كما جعل هبوط آدم سبب ارتفاعه ، وبعده سبب قربه ـ فسبحانه من تواب ما أكرمه ، ومن رحيم ما أعظمه !

وقال « قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وَإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَترحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . (الأعراف ٢٣) .

« قالا » عندما ناداهما ربهما « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » ، اشتد خوف آدم وحواء من الله سبحانه ، وظنا أن الله تعالى سينزل بهما عقوبة على فعلهما الذى فعلا ، فقالا جميعا ما ألهمهما الله سبحانه،وتحرك لسان آدم وتحرك لسان حواء ...

« ربنا ظلمنا أنفسنا » أى ضررناها بالمعصية . وقيل : نقصنا حظها بالتعرض للإخراج من الجنة .

وفى هذا التعبير ما فيه من الاستكانة لله تعالى والتذلل بين يديه ، مما يدل على شدة خوفهما من بطش الله تعالى .

« وإن لم تغفر لنا » ذلك بعدم العقاب عليه . وإن لم تتجاوز لنا عما كان منا .

« وترحمنا » بالرضا عنا . وقيل : المراد وإن لم تستر علينا بالحفظ عما يتسبب نقصان الحظ ، وترحمنا بالتفضل علينا بما يكون عوضا عما فاتنا .

« لنكونن من الخاسرين » من الذين خسروا خسرانا مبينا ؛ من الكاملين فى الخسران .

وقيل إن ذلك كان قبل نبوة آدم عليه السلام ، إذ لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام بعد النبوة كبيرة ولا صغيرة .

وقال تعالى « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (طه ١٢٢) .

« ثم اجتباه ربه » أى اصطفاه سبحانه ، وقربه إليه ، بالحمل على التوبة والتوفيق من اجتبى الشىء جباه لنفسه أى جمعه . وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام .

« فتاب عليه » أى رجع عليه بالرحمة وقبل توبته حين تاب .

« وهدى » أى إلى الثبات على التوبة والتمسك بما يرضى المولى سبحانه . وقيل : إلى النبوة والقيام بما تقتضيه . وقيل الاجتباء بالاختيار للرسالة . وجعلوا الآية دليلا على أن ما جرى قبل البعثة .

وقال بعضهم : إنه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم .

وعلى هذا يكون من تمام معنى الآية كذلك : ثم اجتباها ربها فتاب عليها وهداها أى أن الله سبحانه تاب على حواء وهداها كما تاب على آدم وهداه ، لأنهما استغفرا معاً ، كما أنهما أكلا معا وعصيا معا .

وذاق آدم وذاقت حواء طعم الرضى من جديد ، حين عفا الله عنهما ، وقربهما بعد أن تاب عليهما .

واستعادت وجوههما نورها الذى كان يتلألأ فيها ، واحلولت الحياة فى الجنة من جديد .

فماذا حدث بعد ذلك ؟ .

هل يستمران فيما هما فيه ، هل يعودان إلى ما كانا عليه من العيش فى الجنة ؟ .

كلا . إن فى تكوينهما الآن شيئا جديداً ، لم يعد يصلح للجنة، ولا يتناسب معها.

إن الغريزة الجنسية قائمة بهما الآن ، وما يستتبعها من إتيان وإمناء وحيض ونفاس وحمل ووضع وغير ذلك .

اهبطوا منها جميعاً

قال تعالى « ... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كفروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . (البقرة ٣٦ : ٣٩) .

« وقلنا اهبطوا » المخاطب آدم وحواء وإبليس .

« بعضكم لبعض عدو » كل منكم عدو للآخر ، أنتم وذريتكم .

« ولكم فى الأرض مستقر » اهبطوا إلى الأرض حيث تجدون لكم فيها مستقرا يناسبكم بعد الذى كان منكم .

« ومتاع » تنتفعون بما فيها ، وتستمتعون بما عليها .

« إلى حين » والحين مقدار من الزمان قصيرا أو طويلا ، والمراد هنا إلى وقت الموت ، وهو القيامة الصغرى .

« قلنا اهبطوا منها » كرر للتأكيد .

« جميعا » أى مجتمعين سواء كان فى زمان واحد أولا . وقد يفهم الاتحاد فى الزمان من سياق الكلام .

« فإما يأتينكم منى هدى » الخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، وأدخل الكثيرون (إبليس) لأنه مخاطب بالإيمان .

وتكرر الهدى لأن المقصود هو المطلق ولم يسبق فيه عهد فيعرف ، وفى المراد به هنا أقوال ، فقيل . الكتب المنزلة ، وقيل : الرسل .

« فمن تبع هداى » فمن عمل بما أنزلت إليه من عندى .

« فلا خوف عليهم » من عقاب فى الآخرة .

« ولا هم يحزنون » وفيه إشارة إلى أنه يدخلهم الجنة التى هى دار السرور والأمن لا خوف فيها ولا حزن .

« لقد كانت هذه هى الوصية الأولى التى أوصى الله بها آدم وحواء ، حين أمرهما بالنزول إلى الأرض ، وبالخروج من الجنة .

إنكم ستنزلون حتما وفورا إلى مكان آخر غير هذه الجنة : إلى الأرض ، إلى الكوكب الأرضى .

وستستقرون فيها ، وتستمتعون بما عليها حتى الموت .

وسأنزل إليكم كتبى ، وابعث إليكم رسلى ، يذكروكم ما لكم وما عليكم .

فمن آمن وعمل صالحا ، فسوف أعيده إلى هذه الجنة التى أخرجتم منها ، ومن كفر بآياتى التى أنزلت فإلى جهنم وبئس القرار .

وقال « قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » . (الأعراف ٢٤ و ٢٥) .

« قال اهبطوا » المأثور عن كثير من السلف أنه خطاب لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس عليه اللعنة .

« بعضكم لبعض عدو » كل منكم عدو للآخر . والمراد هم وذريتهم واختار بعضهم كون العداوة هنا بمعنى الظلم أى يظلم بعضكم بعضا بسبب تضليل الشيطان .

« ولكم فى الأرض مستقر » أى استقرار أو موضع استقرار .

« ومتاع » أى بلغة .

« إلى حين » يريد به وقت الموت .

« قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » عند البعث يوم القيامة .

وقال « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هدى فمن اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » . (طه ١٢٣ و ١٢٤) .

« قال » قال الله تعالى لآدم وحواء .

« اهبطا منها جميعاً » انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، وقيل الخطاب له عليه السلام ولإبليس عليه اللعنة فإنه دخل الجنة بعد ما قيل له (اخرج منها فإنك رجيم) للوسوسة .

« بعضكم لبعض عدو » لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد فالتعادى فى الحقيقة بين أولادهما . ولظهور العدواة بين آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة ، وكذا بين ذرية آدم عليه السلام وذرية اللعين . ومن هنا قيل : الضمير لآدم وذريته وإبليس وذريته .

« فإما يأتينكم منى هدى » أى بنبى أرسله إليكم وكتاب أنزله عليكم .

« فمن اتبع هداى » وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه .

« فلا يضل » فى الدنيا .

« ولا يشقى » فى الآخرة .

« ومن أعرض عن ذكرى » الذكر يقع على القرآن ، وعلى سائر الكتب الالهية.

« فإن له معيشة ضنكا » أى ضيقة شديدة . وروى تفسيره بالشديد من كل وجه والمتبادر أن تلك المعيشة له فى الدنيا ، ووجه ضيق معيشة الكافر المعرض فى الدنيا أنه شديد الحرص على الدنيا متهالك على ازديادها ، خائف من انتقاصها ، غالب عليه الشح بها ، حيث لا غرض له سواها ، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة . وقيل الضنك مجاز عما لا خير فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه وزيادة فى عذابه يوم القيامة كما دلت عليه الأخبار . وقال بعضهم : إنها تكون يوم القيامة فى جهنم .

« ونحشره يوم القيامة أعمى » الظاهر أن المراد فاقد البصر .

« وفى رواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : أن الكافر يحشر أولا بصيراً ثم يعمى ، فيكون الإخبار بأنه قد كان بصيراً اخباراً عما كان عليه فى أول حشره .

هبطوا جميعاً ، آدم وحواء وإبليس ، من الجنة ونزلوا إلى الكوكب الأرضى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة .

عنْ أبى هريرةَ أنَّ النبىَّ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : خيرُ يوْمٍ طلعتْ عليهِ الشمسُ يوْمُ الجُمُعةِ ، فيهِ خلقَ آدمُ ، وفيهِ أُدخلَ الجنةَ ، وفيهِ أُخرجَ منهَا ، ولا تقومُ الساعةُ إلاَّ فِى يوْمِ الجُمُعةِ . (مسلم) .

قال القاضى عياض : الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست لذكر فضيلته لأن إخراج آدم وقيام الساعة لا يعد فضيلة ، وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام ، وما سيقع ، ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة ، لنيل رحمة الله ودفع نقمته.

وقيل : الجميع من الفضائل ، وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية ، وهذا النسل العظيم ، ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ، ولم يخرج منها طرداً بل لقضاء أوطار ثم يعود إليها ، وأما قيام الساعة فسبب لتعجل جزاء الأنبياء

والصديقين والأولياء وغيرهم وإظهار كرامتهم وشرفهم ، وفى الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام .

فأخرجهما مما كانا فيه

قال تعالى « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .. » (البقرة ٣٦) .

« فأزلهما » ، أى حملهما على الزلة بسببها ، وتحقيقه أصدر زلتهما عنها ، والضمير على هذا للشجرة . وقيل : أزلهما أى أذهبهما والضمير حينئذ للجنة .

« الشيطان عنها » إبليس عن الجنة .

« فأخرجهما مما كانا فيه » أى من النعيم والكرامة ، أو من الجنة .

وفى الكلام من التفخيم ما لا يخفى .

وقال « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (الأعراف ٢٦ و ٢٧) .

« يا بنى آدم » خطاب للناس كافة : ولا يخفى سر هذا العنوان فى هذا المقام .

« قد أنزلنا عليكم لباساً » أى خلقنا لكم ذلك بأسباب نازلة من السماء ، كالمطر الذى ينبت به القطن الذى يجعل لباساً . وقيل إنا أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم وكل ما أعطاه الله تعالى لعبده فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو أو سفل بل هو جار مجرى التعظيم .

« يوارى » يستر .

« سوءاتكم » التى قصد إبليس عليه اللعنة إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك .

« وريشا » أى زينة أخذا من ريش الطير لأنه زينة له . فيكون اللباس موصوفاً بشيئين مواراة السوأة والزينة .

« ولباس التقوى » أى العمل الصالح ، أوخشية الله تعالى ، أوالحياء ، أوالإيمان أو ما يستر العورة وهو اللباس الأول ، أو لباس الحرب أى الملابس العسكرية التى يتقى بها من العدو ؛ أو ثياب النسك والتواضع كلباس الصوف والخشن من الثياب .

« ذلك خير » الإشارة بالبعيد للتعظيم . أى لباس التقوى خير .

« ذلك » أى انزال اللباس المتقدم كله أو الأخير .

« من آيات الله » الدالة على عظيم فضله وعميم رحمته .

« لعلهم يذكرون » فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح .

« يا بنى آدم » تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صدر به .

« لا يفتننكم الشيطان » أى لا يوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم بما يمنعكم به عن دخول الجنة فتطيعوه .

« كما أخرج أبويكم من الجنة » كما فتن أبويكم ومحنهما بأن أخرجهما منها . ونسبة الاخراج إليه لأنه كان بسبب اغوائه .

« ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » سلبهما لباسهما ليرى آدم عورة حواء ، ويرى حواء عورة آدم .

« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » تأكيد للتحذير ، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف . والقبيل الجماعة والمراد بهم هنا جنوده من الجن . وليس فى الآية أكثر من نفى رؤيتهم فى صورهم الأصلية .

« إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » أى قرناء لهم مسلطين عليهم ، متمكنين من اغوائهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة ، أو بارسالهم عليهم وتمكينهم منهم .

وكذلك أخرج إبليس آدم وحواء من الجنة ، من نعيمها الذى كانا فيه .

ونزل آدم وحواء ليسكنا الكوكب الأرضى فى مكان ما من سطح الأرض ، على اليابسة فى مكان لا يعلمه إلا الله سبحانه .

ربما هبطا سويا ، ونزلا معا ، ووصلا الأرض فى مكان واحد .

وربما هبط آدم فى مكان من الأرض ، وهبطت حواء فى مكان آخر ، بعيد أو قريب ، ثم التقت به بعد ذلك والتقى بها .

كل هذا جائز ... ولا يعلم الغيب إلا الله .

المهم أنهم نزلوا إلى الأرض ، وأنهم اتخذوها مسكنا ، وبذلك تحقق القدر ، ومضى القضاء ، ووقع قوله سبحانه « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

كانت الكرة الأرضية فى انتظارهما فعلا ، وكان كل شىء فيها ينتظر نزول الإنسان .

أنهارها مطردة ، تفيض وتنضب ؛ ولكن لا يوجد من ينتفع بمائها وخيرها .

أشجارها تزهر وتثمر ، ثم تنضج الثمار ، ثم تتساقط على الأرض ، وتذهب مع الريح ، لأنه لا يوجد من يأكلها .

حيوانها يجرى فى نواحيها ، يأكل وحشه من أليفه ، ولكن لا يوجد من يستأنسها ويذللها ويأكل من لحومها وألبانها .

طيورها تغرد وتبيض وتفرخ ، ولكن لا يوجد من يستمع إلى التغريد ، ومن يأكل من البيض ، ومن يتلذذ بلحومها .

باطنها يحوى المعادن والأعاجيب ولكن لا يوجد من يستخرج ذلك كله ويستفيد منه .

ظاهرها أعد إعداداً جميلا ، وكل ما فيه ينادى بمن يعلو هذا العرش .

فكان نزول آدم وحواء إلى الأرض ، استجابة طبيعية لنداء الأرض وما عليها .

واتخذ آدم وحواء من اليابسة عرشهما .

أما إبليس فجعل عرشه ...

عرش إبليس

عنْ جابرٍ قالَ سمعتُ النبيَّ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : إنْ عرْشَ إبليسَ علىَ البحرِ ، فيبعثُ سراياهُ فيفتنونَ الناسَ ، فأعظمهُمْ عندَهُ أعظمهُمْ فِتْنَةً . (مسلم) .

« إن عرش إبليس على البحر » العرش هو سرير الملك ومعناه أن مركزه البحر، ومنه يبعث سراياه فى نواحى الأرض .

فكما أن الإنسان سكن اليابسة من الكرة الأرضية فهى له مستقر . فكذلك إبليس سكن البحر فهو له مستقر .

وكما أن الإنسان يركب البحر ليبتغى من فضل الله ، فكذلك إبليس يبعث سراياه إلى اليابسة للتحريش بين الخلق وإضلالهم .

عنْ جابرٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليه وسلمَ : إنَّ إبليسَ يضعُ عرشهُ علىَ الماءِ ، ثُمَّ يبعثُ سراياهُ ، فأدْناهُمْ منهُ منزلةً أعظمهمْ فتنةً ، يجيءُ أحدُهُمْ فيقولُ : فعلتُ كذَا وكذَا ، فيقولُ : ما صنعتَ شيئاً ، قالَ : ثُمَّ يجيءُ أحدهُمْ فيقولَ : ما تركتهُ حتىَّ فرقتُ بينهُ وبينَ امرأتهِ ، قالَ : فيُدنيهِ منهُ ويقولُ : نعمَ أنتَ ... (مسلم) .

«فيدنيه منه ويقول نعم أنت» هى الموضوعة للمدح ، فيمدحه لإعجابه بصنعه وبلوغه الغاية التى أرادها .

عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمْ : ما منكُمْ منْ أحدٍ إلاَّ وقد وكلَ بهِ قرينهُ منَ الجنِّ ، قالُوا : وإياكَ يارسولَ اللهِ ؟ قالَ : وإيايَ ، إلاَّ أنَّ اللهَ أعانني عليهِ فأسلمَ ، فلا يأمُرُنِي إلاَّ بخيرٍ . (مسلم) .

« فأسلمُ » فأسلم برفع الميم ، وفتحها . وهما روايتان مشهورتان ، فمن برفع قال

معناه أسلم أنا من شره وفتنه ، ومن فتح قال : إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرنى إلا بخير . واختلفوا فى الأرجح منهما ، فقال الخطابى الصحيح المختار الرفع . ورجح القاضى عياض الفتح ، وهو المختار لقوله صلى الله عليه وسلم : فلا يأمرنى إلا بخير . واختلفوا على رواية الفتح قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد وقد جاء هكذا فى غير صحيح مسلم ، فاستسلم ، وقيل معناه : صار مسلما مؤمنا وهذا هو الظاهر . قال القاضى : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه . وفى هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان .

وهكذا بدأ إبليس رسالته فى الأرض .

رسالة الاغواء والإضلال والإفساد .

رسالة التسلط على الإنسان بالوسوسة ، التسلط على عدوه الأول ، الذى كان سبباً فى طرده من الجنة ، بعد أن كان ملاكا كريماً .

هو دائم الوسوسة للإنسان ، لا يتركه أبداً من ولادته حتى موته .

عنْ أبى هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ صلىّ اللهُ عليه وسلمّ أنهُ قالَ : كلُّ بنى آدمَ يمسهُ الشيطانُ يومَ ولدتهُ أمهُ ، إلا مريمَ وابنهَا . (مسلم) .

وعنه رضى الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَ : صياحُ المولودِ حينَ يقعُ نزغةٌ منَ الشيطانِ . (مسلم)

« صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان » أى حين يسقط من بطن أمه ، ومعنى نزغه نخسة وطعنة ، ومنه قولهم نزغه بكلمة سوء أى رماه بها .

وهذا ظاهر فى عداء إبليس وذريته لآدم وذريته وأنه بلغ من شدة الغيظ والحقد أن يذهب إلى المولود لساعته لينزغه وينخسه ، ولعل ذلك لأنه لا يدرى كيف يضل المولود حيث لا عقل له بعد ، فينخسه غيظا منه .

ذلكم هو العدو المبين .
ذلكم هو إبليس اللعين .
أما آدم فسكن الأرض ... سكنها ...

ليبلوكم أيكم أحسن عملا

سكن آدم وحواء فى الأرض ، وسكن فيها من بعدهما ذريتهما ، لتحقيق فكرة الحياة . والغاية من الحياة « وهدف الحياة الدنيا ، وهى قوله تعالى ...

« الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ » (الملك ٢) .

« الذى » هو الذى .

« خلق » أوجد .

« الموت » على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة .

« والحياة » صفة وجودية بلا خلاف وهى ما يصح بوجوده الإحساس .

وتقديم الموت على تقدير كونه عدما مطلقا أعنى عدم الحياة عما هى من شأنه ظاهر بسبقه على الوجود ، وعلى تقدير كونه العدم اللاحق كما هو الأنسب بالإرادة هنا أعنى عدم الحياة عما اتصف بها ، فلأن فيه مزيد عظة وتذكرة وزجر عن ارتكاب المعاصى وحث على حسن العمل .

« ليبلوكم » أى ليعاملكم معاملة من يختبركم .

« أيكم أحسن عملا » أى أصوبه وأخلصه ، فيجازيكم على مراتب متفاوته حسب تفاوت مراتب أعمالكم .

وأصل البلاء الاختبار . والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الآية : أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله

تعالى ، وأسرع فى طاعة الله عز وجل ، أى أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله تعالى ، وأكمل ضبطا لما يؤخذ من خطابه سبحانه .

« وهو العزيز » الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء .

« الغفور » لمن شاء منهم أو لمن تاب على ما اختاره بعضهم لأنه أنسب بالمقام .

والقرآن الكريم والسنة البيضاء ، مليئان بما يؤيد ذلك ، ولو ذهبنا نتتبع النصوص الكريمة فى هذه الناحية لطال الأمر بنا .

ولكن نكتفى بهذه الآية الكريمة التى لخصت الغاية من الحياة الدنيا ، وإرادة الله تعالى التى يريدها من آدم بإنزاله إلى الأرض ، ويريدها من ذريته من بعده .

فالحياة ليست لننعم بها ، وليست لنشقى فيها ، ولكن لنبتلى ؛ لتختبر فى بأسائها ونعمائها ، فى خيرها وشرها .

قال تعالى « ... ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون » . (الأنبياء ٣٥).

وقال « ... وبَلَوْنَاهم بالحسنات والسيئاتِ لعلهم يرجعون » . (الأعراف ١٦٨)

فليس الأمر كما ذهب كثير من الفلاسفة ، والمفكرين .

ولا كما ذهب المتفائلون الذين يرون الحياة لذة وسروراً .

ولا كما ذهب المتشائمون الذين يرونها حزنا وآلاما .

ولكن الحياة شر وخير ، حزن وسرور ، لذة وألم ، سلب وعطاء ، غنى وفقر حياة وموت ، وفى النهاية جنة أو نار ، وهنا مجال العقل ، ومجال الاختيار ، ومجال التكليف ، ومجال الجزاء .

عقلك الميزان ، هو النور الإلهى ، « هو الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل .

وعن يمينك ملاك يلهمك الخير .

وعن يسارك شيطان يوسوس لك الشر . وأنت تختار ما تشاء .

فإن شئت اليمنى فالى اليمين ، وإن شئت اليسرى فالى اليسار .

وهذه هى قصة الحياة ، ومن أجل ذلك نزل آدم وحواء إلى هذه الأرض .

ونزل معهما إبليس . وجعل الله بعضهم لبعض عدوا ، ليتم الموضوع ، وتكتمل أدوات الاختبار .

ابنى آدم

قال تعالى « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » . (المائدة ٢٧:٣١) .

« واتل عليهم » ضمير « عليهم » يعود على بنى إسرائيل كما هو الظاهر إذهم المحدث عنهم أولا ، وأمره صلى الله عليه وسلم بتلاوة ذلك عليهم إعلاما لهم بما هو غامض فى كتبهم الأولى الذى لا تعلق للرسول عليه الصلاة والسلام بها إلا من جهة الوحى لتقوم الحجة بذلك عليهم .

وقيل الضمير عائد على هذه الأمة أى اتل يا محمد على قومك .

« نبأ ابنى آدم » هابيل عليه الرحمة . وقابيل عليه ما يستحقه ، وكانا بإجماع غالب المفسرين ابنى آدم عليه السلام لصلبه .

روى أنه كان لا ولد لآدم عليه السلام مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا

البطن الآخر ، جعل افتراق البطون بمنزلة افتراق النسب للضرورة إذ ذاك حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل . وقابيل ، وكان قابيل صاحب زرع ، وهابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكانت له أخت اسمها إقليما أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه ، وقال : هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها . فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى فقال لهما قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ، وإنما أمر بذلك لعلمه أنه لا يقبل من قابيل لا أنه لو قبل جاز . ثم قربا قربانا ، فقرب هابيل جذعة ، وقيل : كبشا ، وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبله عظيمة ففركها وأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هابيل ، وكان ذلك علامة القبول ، وكان أكل القربان غير جائز فى الشرع القديم ، وتركت قربان قابيل فغضب ، وقال : لأقتلنك فأجابه بما نص الله تعالى .

« بالحق » اتل تلاوة متلبسة بالحق والصحة . موافقا لما فى كتب الأولين .

« إذ قربا قربانا » إذ قدم كل منهما قربانا . والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو غيرها .

« فتقبل من أحدهما » وهو هابيل .

« ولم يتقبل من الآخر » وهو قابيل . لأنه سخط حكم الله تعالى ، وهو عدم جواز نكاح التوأمة .

« قال » لأخيه لفرط الحسد على قبول قربانه ورفعة شأنه عند ربه عز وجل . وقيل : على ما سيقع من أخذ أخته الحسناء .

« لأقتلنك » أى والله تعالى لأقتلك .

« قال » هابيل الذى تقبل قربانه لما رأى حسد أخيه .

« إنما يتقبل الله » أى القربان والطاعة .

« من المتقين » فى ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى لا من غيرهم ، ومراده من هذا الجواب إنك إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها عن لباس التقوى لا من قبلى

فلم تقتلنى ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التى هى السبب فى القبول ؟ ! .

وهو جواب حكيم مختصر جامع لمعان .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » لئن بسطت إلى يدك كى تقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك كى أقتلك ، ولا شبهة فى ذلك أولا وآخراً لأن المدافع إنما يحسن منه المدافعة للظالم طلبا للتخلص من غير أن يقصد إلى قتله . فكأنه قال له : لئن ظلمتنى لم أظلمك .

والمعنى لئن هممت بقتلى ما أنا بقاتلك ولكن فقط أدافع عن نفسى ولا أقتلك لأنك أخى والأخوة تمنعنى من ذلك .

« إنى أخاف الله رب العالمين » تعليل للامتناع عن بسط يده ليقتله. وفيه إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أتم وجه ، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى .

« إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » إنى أريد باستسلامى وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع بإثمى أى تتحمله لو بسطت يدى إليك حيث كنت السبب له ، وأنت الذى علمتنى الضرب والقتل ، وإثمك حيث بسطت إلى يدك .

وقيل :معناه بإثمى قتلى (وإثمك) الذى هو قتل الناس جميعاً حيث سننت القتل .

« فتكون من أصحاب النار » فتكون يا قابيل من الملازمين للنار .

« وذلك جزاء الظالمين » وهى من كلام هابيل على ما هو الظاهر . وقيل : بل هى إخبار منه تعالى للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه » فسولته له ووسعته والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه .

« فقتله » روى أن قابيل طلب أخاه ليقتله فراغ منه فى رءوس الجبال فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن إلى أن بعث الله تعالى الغراب .

« فأصبح من الخاسرين » دنيا وآخرة

وعنْ عبدِ اللهِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَ .لا َ تقتلُ نفسٌ ظلماً إلا ْ كانَ علىَ ابنِ آدمَ الأولِ كِفلٌ منْ دمهَا لأنهُ كانَ أولَ منَ سَنّ القتلَ . (مسلم) .

« الكفل » الجزاء والنصيب وقال الخليل هو الضعف .

وهذا الحديث من قواعد الإسلام وهو أن كل من ابتدع شيئا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به فى ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة ، ومثله من ابتدع شيئاً من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة وهو موافق للحديث الصحيح من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة وللحديث الصحيح من دل على خير فله مثل أجر فاعله وللحديث الصحيح ما من داع يدعو إلى هدى وما من داع يدعو إلى ضلالة والله أعلم .

« فبعث الله غرابا » روى أنه لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله ، وكره أن يأتى به آدم عليه الصلاةوالسلام فيحزنه ؛ وتحير فى أمره إذكان أول ميت من بنى آدم عليه السلام ، فبعث الله تعالى غرابين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر إليه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ثم دفعه برأسه حتى ألقاه فى الحفرة ثم بحث عليه برجله حتى واراه . وقيل : إن أحد الغرابين كان ميتا .

« يبحث فى الأرض » البحث فى الأصل التفتيش عن الشيء مطلقاً ، أوْ فى التراب ، والمراد به هنا الحفر .

« ليريه كيف يوارى سوءة أخيه » المراد بالسوأة جسد الميت ، جسد هابيل ، وقيل : العورة لأنها تسوء ناظرها ، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها لأن سترها آكد .

« قال » قال قابيل.

« ياويلتا » كلمة جزع وتحسر . والويلة ـ كالويل ـ الهلكة كأن المتحسر ينادى هلاكه وموته ويطلب حضوره بعد تنزيله منزلة من ينادى ، ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان فى حال أشد منه .

« أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » تعجب من عجزه عن كونه مثله لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه مع كونه أشرف منه .

« فأوارى سوءة أخى » فأستر جثة أخى هابيل !! .

« فأصبح من النادمين » وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره ، وتلمذة الغراب فإنها إهانة ولذا لم يلهم من أول الأمر ما ألهم . واسوداد وجهه . وتبرىء أبويه ـ آدم وحواء ـ منه ، لا على الذنب إذ هو توبة .

هذه هى قصة ابنى آدم ، قابيل وهابيل ، قصة القتل الأول على ظهر الأرض ؛ قصة أقبح جريمة قتل وقعت على الأرض ، لأن القاتل والمقتول أخوان شقيقان ، ولأن سببها امرأة ، الطمع فى جمال امرأة حسناء ، أبى قابيل على هابيل أن يتزوجها وأراد أن يحتجزها لنفسه ، فكان ما كان من قتله لهابيل ، ليخلو له وجه الفتاة الحسناء وينعم بها .

ويزيد من قبحها أنها أول القتل على الأرض ، ولذلك جعل الله على قاعلها وزر كل جريمة قتل تحدث من بعده .

وهكذا حدث ما كانت الملائكة تخشاه من استخلاف آدم فى الأرض حيث قالوا :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ !! » .

لما حملت حواء طاف بها إبليس

عنْ سمرةَ عنِ النبيُّ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : لمّا حملت حواءُ طافَ بهَا إبليسُ وكانَ لا يعيشُ لهَا ولدٌ فقالَ سمّيه عبدَ الحارثِ فسمته عبد الحارثِ فعاشَ ذلكَ وكانَ ذلكَ منْ وحيِ الشيطانِ وأمرهِ . (الترمذى) .

(قال ابن العربى) هذا تفسير قوله « جعلا له شركاء فيما آتاهما » ، وذلك لسميته عبد الحارث فلم يقدر الشيطان على أكثر من نسبة العبودية لغير الله وهو للملعون يطالب العبد باعظم ما يقدر عليه معه وأدناه فلما يئس من حواء فى غير هذا القدر اقتصر عليه وحواء أيضا لم تتعظ بما كان سبق بينها وبينه وتفر من أقواله وإشاراته وذلك كله من الله لتنفذ المقادير ويتم التقدير . والشرك على أنواع شرك بالله وشرك فى الأعمال وهو الرياء وشرك فى الأسماء وهو موضع خفاء . وهذا كله على قول من يرى أن الآية نزلت فى آدم وحواء ومن يرى أنها فى جميع الآباء والأبناء أشار إلى ما كان ينسب العبودية فى أبنائهم إلى الأصنام ...

ملك الموت يزور آدم

عنْ أبى هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلمَ : لمّا خلقَ اللهُ آدمَ مسحَ ظهرهُ فسقطَ منْ ظهرهِ كلُّ نسمةٍ هوَ خالقهَا منْ ذريتهِ إلىَ يومِ القيامةِ وجعلَ بينَ عينىْ كلِّ إنسانٍ منهمْ وبيصاً منْ نورٍ ثمَّ عرَضهمْ علىَ آدمَ فقال أىْ رب منْ هؤلاءِ قالَ هؤلاءِ ذريتُكَ فرأى رَجُلاً منهُمْ فأعجبهُ وبيصُ ما بينَ عينيهِ فقالَ أىْ ربِّ منْ هذَا فقالَ هذَا رجل منْ آخرِ الأممِ منْ ذريتكَ يقالُ لهُ داودُ فقالَ ربِّ كمْ جعلتَ عمرهُ قالَ ستينَ سنة قالَ أىْ ربِّ زدهُ منْ عمرِى أربعينَ سنةً فلمّا قضىَ عمرُ آدمَ جاءهُ ملكُ الموتِ فقال أوَ لمْ يبقَ منْ عمرِى أربعونَ سنةً قالَ أوَ لمْ تعطهَا ابنكَ داودَ قالَ

فجحدَ آدمُ فجحدتْ ذريتهُ ونسيَ آدمُ فنسيتْ ذريتهُ وخطىءَ آدمُ فخطئتْ ذريتهُ . (الترمذى) .

« جاءه ملك الموت » إذ كمل عمره هذا لأن كل نبى لا تقبض نفسه حتى يخير . فقال لملك الموت بقى من عمرى فقال ألم تهبه لداود . قيل لو كان الرب تعالى هو المخاطب لآدم لما راجعه ولكن ملك الموت يمكن ذلك فيه . والذى عندى أن آدم جحد الهبه جحود ذاهل لا جحود متعسف . قوله فجحد آدم ونسى وخطىء فجحدت ذريته بيان أن الصفات موروثة وأخلاق الآباء مكتسبة للأبناء .

روى أن الله تعالى أبقى على آدم عمره وكمل لداود زيادته فضلا من الله ونعمة...

وعنْ أبى هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَ لمَّا خلقَ اللهُ آدمَ ونفخَ فيهِ الروحَ عطسَ فقال الحمدُ لله فحمدَ اللهَ بإذنهِ فقالَ له ربهُ رحمكَ اللهُ يا آدمُ اذهبْ إلىَّ أولئكَ الملائكةِ إلىَ ملأٍ منهمْ جلوسٍ فقُلِ السلامُ عليكمْ قالوا وعليكَ السلامُ ورحمةُ اللهِ ثمَّ رجعَ إلىَ ربهِ فقال إنْ هذهِ تحيتكَ وتحية بنيكَ بينهمْ فقالَ الله لهُ ويداهُ مقبوضتانِ اخترْ أيُهُما شئتَ قالَ اخترتُ يمينَ ربىِّ وكلتَا يدىْ ربىِّ يمينٌ مباركة ثُمَّ بسطهَا فإذَا فيهَا آدمُ وذريتهُ فقالَ أىْ ربِّ ماهؤلاءِ فقال هؤلاءَ ذريتكَ فإذَا كُلُّ إنسانٍ مكتوب عمرهُ بينَ عينيهِ فإذَا فيهمْ رجلُ أضوأهُمْ أوْ منْ أضوئهمْ قالَ يارب مَنْ هذَا قالَ هذَا ابنُكَ داوُدُ قدْ كتبتُ لهُ عمرَ أربعينَ سنةً قالَ يا رب زدهُ فى عمرهِ قالَ ذاكَ الذى كتبتُ لهُ قالَ أىْ ربِّ فإنىْ قدْ جعلتُ لهُ منْ عمرِى ستينَ سنةً قالَ أنتَ وذاكَ قالَ ثُمَّ أسكنَ الجنةَ ما شاءَ اللهُ ثُمَّ أهبطَ منهَا فكانَ آدمُ يعدُّ لنفسه قالَ فأتاهُ ملكُ الموتِ فقالَ لهْ آدمُ قدْ عجلتَ قدْ كتبَ لِى ألفُ سنةٍ قالَ بلىَ ولكنكَ جعلتَ لابنكَ داودَ ستينَ سنةً فجحدَ فجحدَتْ ذريتهُ ونسيَ فنسيتْ ذريته قالَ فمنْ يومئذٍ أمرَ بالكتابِ والشهودِ . (الترمذى) .

وعندما أتم آدم عمره الذى كتب الله له وهو ألف عام ، جاءه ملك الموت مرة أخرى ، لا للزيارة ولكن ليقضى أمرا كان مفعولا .

وقبض ملك الموت روحه عليه السلام الطاهرة .

وذاق آدم طعم الموت الذى كتبه الله على عباده أجمعين .

روحا آدم وموسى تتجادلان

عنْ أبى هريرةَ رضى اللهُ عنهُ عنِ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم قال حاجّ موسَى آدمَ فقالَ له أنتَ الذِى أخرجتَ الناسَ منَ الجنةِ بذنبكَ وأشقيتهمْ قال : قال آدمُ يا موسى أنتَ الذِى اصطفاكَ اللهُ برسالتهِ وبكلامهِ أتلومنِى علَى أمرٍ كتبهُ اللهُ علىّ قبل أنْ يخلُقنى أو قدره علىّ قبلَ أنْ يخلُقنِى قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فحجّ آدمُ موسَى . (البخارى) .

(وفى حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى قال يا رب أرنا أبانا الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام فقال أنت أبونا قال نعم قال أنت الذى نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته قال نعم قال فما حملك على أن أخرجتنا من الجنة فقال له آدم من أنت قال موسى قال نبى بنى إسرائيل الذى كلمك الله من غير رسول من خلقه قال نعم قال اما وجدت ان ذلك كان فى كتاب الله قبل أن أخلق قال نعم قال ففيم تلومنى فى شيء سبق من الله فيه القضاء قبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فحج آدم موسى) .

فإن قلت التقاؤهما فى أين كان أكان بالأرواح فقط او بالأرواح والأجسام قلت قال القابسى التقت أرواحهما فى السماء ، وقيل يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة وقال عياض يجوز أن يحمل على ظاهره وأنهما اجتمعا بأشخاصهما وقد ثبت فى حديث الاسراء انه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى السماوات وفى بيت المقدس وصلى بهم فلا يبعد أن الله عز وجل أحياهم كما أحيا

الشهداء ، ويحتمل أن يكون جرى ذلك فى حياة موسى عليه الصلاة والسلام لحديث عمر أرنا أبانا ... إلخ .

« من الجنة » المراد بالجنة التى أخرج منها آدم عليه الصلاة والسلام جنة الخلد وجنة الفردوس التى هى دار الجزاء فى الآخرة ، وهى كانت موجودة قبل آدم عليه الصلاة والسلام وهو مذهب أهل الحق .

« كتبه الله على » ليس المراد انه الزمه إياه واوجبه عليه فلم يكن له فى تناول الشجرة كسب واختيار وإنما المعنى إن الله أثبته فى أم الكتاب قبل كونه وحكم بأن ذلك كائن لا محالة لعلمه السابق فهل يجوز أن يصدر عنى خلاف علم لله فكيف تغفل عن العلم السابق وتذكر الكسب الذى هو السبب وتنسى الأصل الذى هو القدر ؟.

« فحج آدم موسى » أى غلبه بالحجه وظهر عليـــه بها ، وموسى عليه الصلاة والسلام مال فى لومه إلى الكسب وآدم عليه الصلاة والسلام مال إلى القدر وكلاهما حق لا يبطل أحدهما صاحبه ، ومتى قضى للقدر على الكسب أخرج إلى مذهب القدرية أو للكسب على القدر اخرج إلى مذهب الجبرية ، وإنما وقعت الغلبة لآدم عليه الصلاة والسلام من وجهين ، أحدهما أنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقا فيما قضى عليه إلا أن يأذن الشرع هل بلومه فيكون الشرع هو اللائم . الثانى أن الفعل اجتمع فيه القدر والكسب ، والتوبة تمحو أثر الكسب فلما تيب عليه لم يبق إلا القدر والقدر لا يتوجه إليه لوم .

آدم يضحك ويبكى

عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ كان أبُو ذرٍ يحدثُ أنْ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ فُرج عنْ سقفِ بيتى وأنا بمكةَ فنزلَ جبريلُ ففرجَ صدرِى ثم غسلهُ بماءِ زمزمَ ثمَّ جاءَ بطستٍ منْ ذهبٍ ممتلىءٍ حكمةً وإيماناً فأفرغهُ فى صدرِى ثُمَّ أطبقهُ ثُمَّ أخذَ بيدِى فعرَجَ بى إلىَ السماءِ الدنيَا فلمَّا جئتُ إلى السماءِ الدنيَا قالَ جبريلُ لخازنِ السماءِ افتحْ قالَ منْ هذا قالَ جبريلُ قالَ معكَ أحدٌ قالَ

نعم معي محمدٌ صلى الله عليه وسلم فقالَ أرسلَ إليه قالَ نعمْ فلمَّا فتحَ علونا السماءَ الدنيا فإذا رجلٌ قاعدٌ على يمينه أسودةٌ وعلى يساره أسودةٌ إذا نظرَ قبلَ يمينه ضحكَ وإذا نظرَ قبلَ يساره بكى فقالَ مرحباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ قلتُ لجبريلَ من هذا قالَ هذا آدمُ وهذه الأسودةُ عن يمينه وشماله نسمُ بنيه فأهلُ اليمين منهم أهلُ الجنةِ والأسودةُ التي عن شماله أهلُ النارِ فإذا نظرَ عن يمينه ضحكَ وإذا نظرَ قبلَ شماله بكى » . (البخاري) .

« أسودة » جمع سواد وهو الشخص وقيل الجماعات .

« مرحباً » أي أصبت رحباً وسهلا .

« بالنبي الصالح والابن الصالح » أي القائم بحقوق الله وحقوق العباد .

« نسم بنيه » هي الأنفس والمراد أرواح بني آدم .

لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، آدم عليه السلام ، تارة يضحك وتارة ، يبكي إذا نظر قبل اليمين ورأى أرواح بنيه الذين سيدخلون الجنة ضحك ، وإذا نظر قبل شماله ورأى أرواح بنيه الذين سيدخلون النار بكى .

رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من آدم في السماء الدنيا ليلة الإسراء .

وكم في النبوة من عجب ! !

فكل من يدخل الجنة على

صورة آدم

عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ « ... فكلُّ منْ يدخلُ الجنةَ علىَ صورةِ آدمَ فلمْ يزلِ الخلقُ ينقصُ بعدُ حتى الآنَ » . (البخاري) .

هذه قطعة طيبة كريمة من حديثه صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق ذكره كاملا في فصل « جمال حواء » من هذا الكتاب . وقد خصصت لها هذا الفصل لمزيد علها وكريم ما فيها من بيان نبوي شريف . بل إن هذه الثمرة الكريمة لتصلح وحدها كتابا

كبيراً جليلا ، لما فيها من بشريات للناس كافة ، وكشوف علمية للخلق أجمعين .

والأصلان العظيمان فى هذه القطعة من الحديث الكريم هما :

١ ـ فكل من يدخل الجنة على صورة آدم .

٢ ـ فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن .

أما الأصل الأول وهو دخول أهل الجنة الجنة على صورة آدم فتتفرع منه أمور .

الأمر الأول أن فى ذلك بشرى للناس كافة . فمن الناس الأعور ، ومنهم الأعمى ومنهم مقطوع اليدين ، ومقطوع الرجلين ، والأقرع ، والقصير ، والقبيح ، والدنىء الخلقة ، والمتقوس الظهر ، وعديم التناسق فى جسمه ، ومنهم ومنهم .

فإذا كان يوم القيامة ، أعاد الله جميع الخلائق الصالحين على صورة آدم عليه السلام يوم خلقه الله لأول مرة . وبذلك يتم تكريم بنى آدم الصالحين ، ويتم إعفاء أهل البلاء من بلائهم الذى كانوا عليه فى الدنيا ، ويتم تعويضهم عما فقدوا فى الحيـاة الأولى .

وإذا كان يوم القيامة كذلك رد الله جميع بنات آدم الصالحات إلى صورة أمهم حواء التى خلقت عليها لأول مرة وبذلك يتحقق لكل أنثى ما فاتها فى الدنيـا من الجمال . وفى ذلك ما فيه من العزاء والعوض عما فاتهن فى دنياهن .

الأمر الثانى أن الحياة فى الجنة حياة خلود أبدى ، ولا يتناسب مع الخلود إلا ما يحتمل مصارعة الزمان الطويل ، وهذا يتحقق فى مثل تلك الأجسام الفارعة الشاهقة .

عن أبِى هريرةَ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ إنَّ أولَ زمرةٍ يدخلونَ الجنةَ علىَ صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ والذينَ يلونهمْ علىَ أشد كوكبٍ درىٍّ فِى السماءِ إضاءةً لا يبولونَ ولا يتغوطونَ ولا يمتخطونَ ولا يتفلونَ أمشاطهمُ الذهبُ ورشحهمُ المسكُ ومجامرهمُ الألوّةُ وأزواجهمُ الحورُ العين

أخلاقهمْ علىَ خلقِ رجُـل واحدٍ على صورةِ أبيهمْ آدمَ ستونَ ذراعاً فِى السماءِ .
(مسلم) .

« ورشحهم المسك » أى عرقهم .

« ومجامرهم الألوة » أى العود المندى .

« أخلاقهم على خلق رجل واحد » وقد ذكر مسلم فى الكتاب اختلاف ابن أبى شيبة وأبى كريب فى ضبطه فإن ابن أبى شيبة يرويه بضم الخاء واللام وأبو كريب بفتح الخاء وإسكان اللام وكلاهما صحيح وقد اختلف فيه رواة صحيح البخارى ، ويرجح الضم بقوله فى الحديث الآخر لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد ، وقد يرجح الفتح بقوله صلى الله عليه وسلم فى تمام الحديث على صورة أبيهم آدم أو على طوله .

« ولا يمتخطون ولا يتفلون » هو بكسر الفاء وضمها حكاهما الجوهرى وغيره وفى رواية لا يبصقون وفى رواية لا يبزقون وكله بمعنى .

وعن أبى هريرةَ عنِ النبىِّ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ فِى قولِ اللهِ يومَ ندعو كلَّ أناسٍ بامامهمْ قالَ يدعَى أحدهُـمْ فيعطىَ كتابهُ بيمينهِ ويمدُ لهُ فِى جسمهِ ستونَ ذراعاً ويبيضُ وجههَ ويجعلُ علىَ رأسهِ تاج منْ لؤْلؤٍ يتلألؤُ فينطلقُ إلىَ أصحابهِ فيرونهُ من بعيدٍ فيقولونَ اللهمَّ ائتنا بهذا وباركْ لنَا فى هذَا حتى يأتيهمْ فيقولُ أبشرُوا لـكلِّ رجلٍ منكمْ مثلُ هذَا قالَ وأمَّا الـكافرُ فيسودُ وجههُ ويمدُّ لهُ فِى جسمهِ ستونَ ذراعاً علىَ صورةِ آدمَ فيلبسُ تاجاً فيراهُ أصحابهُ فيقولونَ نعوذُ باللهِ منْ شرِّ هذَا اللهمْ لا تأتنا بهذَا قالَ فيأتيهمْ فيقولونَ اللهمَّ أخزهِ فيقولَ أبعدكمُ اللهُ فإنَّ لـكلِّ رجلٍ منكمْ مثلَ هذَا . (الترمذى) .

والأمر الثالث أن كل ما فى الجنة ضخم فخم شاهق ، أشجارها ثمارها قصورها أنهارها على الغاية من الضخامة ، فلو دخل أهل الجنة الجنة على أجسامهم الهزيلة هذه التى هم عليها فى الدنيا ، ما صلحوا للحياة فيها . وكانوا كالنمل أو كالذر بالنسبة للمخلوقات التى فى الجنة ، ومن أجل ذلك يمد الله فى أجسامهم ليتم الانسجام بين الجنة وبين

سكانها من الصالحين . ومن أجل ذلك خلق الله آدم خلقا ضخما ليتسق مع ما فى الجنة التى خلق فيها .

الأمر الثالث أنه ما من إنسان ، ذكرا كان أو أنثى الا وهو يتمنى فى قرارة نفسه جسما أقوى من جسمه ، وأجمل منه ، وأوفى بشرائط الحسن مما هو عليه . ويعيش الإنسان ويتألم فى حياته لعدم تحقق ما يتمناه فى الدنيا . فإذا كانت الآخرة . أعطى الله لكل إنسان صالح ما يتمنى ، وآتاه جسما على أحسن صورة يتصورها إنسان . وأعطى كل أنثى جسما على أجمل صورة تتمناها امرأة .

وبذلك يرضى أهل الجنة عن أنفسهم ، لأنهم أعطوا فوق ما يتمنون .

الأمر الرابع أن ما يتخيله الإنسان من أمانى ، وما يشتهيه من أحلام لذيذة ، لها أصل فى تكوينه ورثه عن أبيه آدم وأمه حواء ، ذلك أنهما خلقا فى الجنة وعاشا حينا من الدهر فى الجنة ، واستمتعا بما فيها ، وبقيت صور مناظرها فى رءوسهما ، وتسلسلت هذه الذكريات فى ذريتهما . من أجل ذلك يحقق الله للإنسان هذه الأمانى يوم القيامة ، ويدخله الجنة التى كان فيها أبواه ليستمتع بما كان يتخيل فى الدنيا .

وأما الأصل الثانى فهو قوله صلى الله عليه وسلم « فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن » ، وهذا أمر لا مراء فيه ، إذ المشاهد أن الإنسان يضعف تدريجيا ، وأن كل جيل ينقص عن سابقه . ولا يمنع هذا من وجود الشواذ فالشاذ لا حكم له ، وإنما العموم أن النقص مستمر على التوالى .

ابليس يولول

يعتبر إبليس عليه اللعنة أشقى مخلوق فيما وصل إلى علمنا نحن البشر عن طريق الوحى السماوى . ذلك بأنه أصل الشر فى الأرض ، وبداية الباطل فى الناس .

فلو أنه لم يسلك الطريق الذى سلكه ، ماكان هناك طرد له من الجنة ، وما نزلت عليه لعنة الله والخلائق أجمعين .

وعلى ذلك يعتبر إبليس هو المسئول الأول عن كل معصية تقع من الإنسان ، وهو يحمل وزرها ويعاقب بها ، لا ينقص ذلك من وزر فاعلها من البشر .

وهو بذلك إمام أهل النار ، وأكبر أهل النار عذاباً ، لأنه هو الذى سن لهم العصيان وزينه لهم .

وإبليس عليه اللعنة يجعل نفسه إلها من دون الله ، ويدعو بنى آدم إلى عبادته من دون الله ، وذلك بالرغم من علمه الأكيد أنه لا إله إلا الله . وأنه كاذب مضلل فى دعواه التى يزينها لبنى آدم .

قال تعالى « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تعقلُونَ » . (يس ٦٠ : ٦٢) .

« ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان » العهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد به ههنا ما كان منه تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) الآية ، وقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وغيرهما من الآيات الواردة فى هذا المعنى .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم فى عالم الذر إذ قال سبحانه لهم (ألست بربكم) .
وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله تعالى الزاجرة عن عبادة غيره عز وجل .

والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل .

« إنه لكم عدو مبين » أى ظاهر العداوة . وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام .

« وأن اعبدونى » ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى.

« هذا صراط مستقيم » التنكير للمبالغة والتعظيم أى هذا صراط بليغ فى استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه ، واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف.

« ولقد أضل منكم جبلا كثيراً » الجبل الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبيها بالجبل فى العظم . وفسره بعضهم بالجماعة وبعض بالأمة . والمعنى ولقد أضل الشيطان منكم يا بنى آدم أمما كثيراً .

« أفلم تكونوا تعقلون » أفلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه لئلا يحيق بكم العذاب الأليم ؟!

ورغم ذلك المبلغ الذى بلغه الشيطان من الناس ، وما وصل إليه من اضلال الأغلبية العظمى منهم ، فإنه حقير ذليل يبكى ويولول ويصغر فى نفسه كلما رأى شيئا من بنى آدم يذكره بجريمته الأولى جريمة استكباره أن يسجد لآدم عليه السلام.

عنْ أبِى هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ الله صلىْ اللهَ عليهِ وسلمَ إذَا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكى يقولُ يا ويلهُ (وفى روايةِ أبى كريبٍ) يا ويلِى أمرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجدَ فلهُ الجنةُ وأمرتُ بالسجودِ فأبيتُ فلىَ النارُ . (مسلم) .

« إذا قرأ ابن آدم السجدة » معناه آية السجدة « يا ويله » هو من آدب الكلام وهو أنه إذا عرض فى الحكاية عن الغير مافيه سوء واقتضت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم صرف الحاكى الضمير عن نفسه تصاونا عن صورة إضافة السوء إلى نفسه

إن إبليس يبكى كلما رأى ابن آدم يسجد لآية من آيات السجود فى كتاب الله . لأن ذلك يحز فى نفسه . كيف أن هذا الآدمى يفعل ما يدخله الجنة بينما هو يأبى ويستكبر فتجب له النار ؟!! .

يا آدم . . . أخرج بعث النار

عنْ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى يا آدمُ فيقولُ لبيكَ وسعديكَ والخيرُ في يديكَ فيقولُ اخرج بعثَ النار قال وما بعثُ النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعةً وتسعينَ فعنده يشيبُ الصغيرُ وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سكارى وماهمْ بسكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ قالوا يارسولَ الله وأينا ذلكَ الواحدُ قال أبشرُوا فإنْ منكمْ رجل ومنْ يأجوجَ ومأجوجَ ألفٌ ثمَّ قال والذي نفسي بيده إني أرجُو أنْ تكونُوا رُبعَ أهل الجنة فكبرنَا فقال أرجُوا أنْ تكونُوا ثلثَ أهلِ الجنةِ فكبرْنا فقال أرجُو أنْ تكونُوا نصفَ أهلِ الجنةِ فكبرْنا فقال ما أنتمْ في الناسِ إلا كالشعرةِ السوداءِ في جلدِ ثورٍ أبيضَ أوْ كشعرةٍ بيضاءَ في جلدِ ثورٍ أسودَ . (البخاري) .

« وسعديك » أي ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة وإسعاداً بعد إسعاد .

« والخير في يديك » أي ليس لأحد معك فيه شركة .

« اخرج » أمر من الاخراج .

« بعث النار » حزبها وهو إخبار أن ذلك العدد من ولده يصيرون إلى النار .

« فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها » أي فعند قول الله تعالى عز وجل لآدم عليه السلام اخرج بعث النار يشيب الصغير من الهول والشدة . (فإن قلت) يوم القيامة ليس فيه حمل ولا وضع (قلت) اختلفوا في ذلك الوقت فقيل هو عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا فهو حقيقة وقيل هو مجاز عن الهول والشدة يعني لو تصورت الحوامل هنالك لوضعن حملهن كما تقول العرب أصابنا أمر يشيب منه الولدان .

« فكبرنا » أي عظمنا ذلك وقلنا الله أكبر السرور بهذه البشارة العظيمة . وإنما

ذكر الربع أولا ثم النصف لأنه أوقع في النفس وأبلغ في الإكرام فإن تكرار الاعطاء مرة بعد أخرى دال على الملاحظة والاعتناء به . ومنه أيضاً حملهم على تجديد شكر الله وتكبيره وحمده على كثرة نعمه .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ اللهُ عزّ وجلْ يا آدمُ فيقولُ لبيكَ وسعديكَ والخيرُ في يديكَ قالَ يقولُ أخرجْ بعثَ النارِ قالَ وما بعثُ النارِ قال من كل ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعينَ قالَ فذاكَ حينَ يشيبُ الصغيرُ وتضع كل ذاتِ حملٍ حملَها وترَى الناسَ سكارَى وما هُم بسكارَى ولكنْ عذابَ الله شديدٌ قالَ فاشتدّ ذلكَ عليهمْ قالُوا يا رسولَ الله أينَا ذلكَ الرجلُ فقالَ أبشرُوا فإنّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكمْ رجلٌ قالَ ثمّ قالَ والذي نفسي بيدهِ إنى لأطمعُ أنْ تكونوا رُبعَ أهلِ الجنةِ فحمدنَا اللهَ وكبرنَا ثمّ قالَ والذي نفسي بيدهِ إنى لأطمعُ أنْ تكونُوا ثلثَ أهلِ الجنةِ فحمدنَا اللهَ وكبرنَا ثم قالَ والذي نفسي بيدهِ إنى لأطمعُ أنْ تكونُوا شطر أهلِ الجنةِ إنّ مثلكمْ في الأممِ كمثلِ الشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ أوْ كالرقةِ في ذراعِ الحمارِ . (مسلم) .

وهو نفس حديث البخاري السابق روايته وشرحه ، ولكنه يختلف عنه قليلا .

« أخرج بعث النار » البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها ومعناه ميز أهل النار من غيرهم .

« كالرقة في ذراع الحمار » الدائرة في ذراعه .

وعنْ عمرانَ بنِ حصينٍ قالَ كنّا معَ النبيّ صلىّ اللهُ عليهِ وسلمَ في سفر فتفاوتَ بينَ أصحابهِ في السيرِ فرفعَ رسولُ اللهِ صلىْ اللهُ عليهِ وسلمَ صوته بهاتينِ الآيتينِ يا أيهَا الناس اتقوا ربكم إنْ زلزلةَ الساعةَ شيءٌ عظيمٌ إلىَ قولهِ عذابٌ اللهِ شديد فلمّا سمعَ ذلكَ أصحابُهُ حثوا المطيّ وعرفُوا أنهُ عندَ قولٍ يقولهُ فقال هل تدرون أيْ يومٍ ذلكَ قالُوا اللهُ ورسولهُ أعلمُ قالَ ذاكَ يومٌ

ينادِي اللهُ فيهِ آدمَ فيناديهِ ربهُ فيقولُ يا آدمُ ابعثْ بعثَ النارِ فيقولُ يا ربِّ وما بعثُ النارِ فيقولُ من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعونَ في النارِ وواحدٌ في الجنةِ فنبسَ القومُ حتى ما أبدوْا بضاحكةٍ فلمَّا رأى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ الذي بأصحابهِ قال اعملُوا وأبشرُوا فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ انكمْ لمعَ خليقتينِ ما كانتَا معَ شيءٍ الا كثرتاهُ يأجوجُ ومأجوجُ ومنْ ماتَ منْ بني آدمَ وبني إبليسَ قالَ فسرىَ عنِ القومِ بعضُ الذي يجدُونَ فقالَ اعملُوا وأبشرُوا فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ ما أنتم في الناسِ إلا كالشامةِ في جنبِ البعيرِ أوْ كالرقمةِ في ذراع الدابة (الترمذى).

« نبس » أى سكت .

« الرقمة » لون يخالف لونا يكون فيه والشامة نحوه .

« تفاوتوا » أى أبطأوا فى السير حتى سبقهم غيرهم .

« حثوا المطى » أى جاءوا بفعل أو قول اقتضى سرعتها فى السير .

« ابعث بعث النار » أى ميز من ذريتك أهل النار من أهل الجنة على التعيين إذ قد ميزوا قبل خلقهم بالعلم والتقدير ، فإن الله علم أهل الجنة من أهل النار قبل خلقهم وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل القبلة ، ثم كتبهم حين خلق القلم وهذا لا يؤمن به إلا أهل السنة ، ثم مسح ظهر آدم حين خلقه وقبض منه قبضتين كما تقدم فجعل قبضة للجنة وقبضة للنار .

هذا هو الحديث الصحيح العظيم ، كما جاء فى البخارى ، وكما جاء فى مسلم ، وكما جاء فى الترمذى . وهو يبين موقفا خطيرا يقفه آدم من ذريته يوم القيامة . يوم يناديه الله عز وجل يا آدم أخرج بعث النار ، فيقول يا رب وما بعث النار ، فيقول الله من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة . فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

موقف خطير حقاً ، ومقام لآدم عليه السلام أخطر وأعظم .

قم يا آدم وميز من ذريتك أهل النار الذين سنبعثهم إليها .

من كل ألف « ٩٩٩ » للنار و « ١ » للجنة .

ولذلك فزع الصحابة من هول النبأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا « يارسول الله أينا ذلك الرجل » ؟ .

واحد فى الألف !! .

أينا يكون ذلك الواحد ؟ ؟ .

آدم يذكر خطيئته

فى مقام الشفاعة

عنْ أنسٍ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال يجمعُ اللهُ المؤمنينَ يومَ القيامةِ كذلكَ فيقولونَ لو استشفعنا إلى ربنا حتَّى يُريحنا منْ مكاننا هذا فيأتونَ آدمَ فيقولون يا آدمُ أما ترَى الناسَ خلقكَ اللهُ بيده وأسجدَ لكَ ملائكتهُ وعلمكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ شفعْ لنَا إلى ربنا حتَّى يريحنا منْ مكاننا هذَا فيقولُ لستُ هناكَ ويذكرُ لهُمْ خطيئتهُ التِي أصابَ ولكنِ ائتوا نوحاً فإنهُ أولُ رسولٍ بعثهُ اللهُ إلى أهلِ الأرضِ فيأتونَ نوحاً فيقولُ لستُ هناكمْ ويذكرُ خطيئتهُ التِي أصابَ ولكنِ ائتوا إبراهيمَ خليلَ الرحمنِ فيأتونَ إبراهيمَ فيقولُ لستُ هناكمْ ويذكرُ لهمْ خطاياهُ التى أصابَها ولكنِ ائتوا موسى عبداً آتاهُ اللهُ التوراةَ وكلمهُ تكليماً فيأتونَ موسى فيقولُ لستُ هناكمْ ويذكرُ لهمْ خطيئتهُ التى أصابَ ولكنِ ائتوا عيسى عبدَ اللهِ ورسولهُ وكلمتهُ وروحهُ فيأتونَ عيسىَ فيقولُ لستُ هناكمْ ولكنِ ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبدا غفر لهُ ما تقدمَ منْ ذنبه وما تأخرَ فيأتونى فأنطلقُ فأستأذنُ علىَ ربى فيؤذن لى عليـــهِ فإذا رأيتُ ربى وقعتُ لهُ ساجداً فيدعنِى ما شاءَ اللهُ أنْ يدعَنى ثمَّ يقالُ لى ارفعْ محمدُ وقلْ يسمع وسلْ

تعطهْ واشفعْ تشفعْ فأحمدُ ربى بمحامدَ علـّمنيها ثمَّ أشفعُ فيحدُّ لى حدًّا فادخلهمُ الجنةَ ثمَّ أرجعُ فإذَا رأيت ربى وقعتُ ساجداً فيدَعُنى ما شاءَ اللهُ أنْ يدَعنى ثمَّ يقالُ ارفعْ محمدَ وقلْ يسمعْ وسلْ تعطهُ واشفعْ تشفعْ فأحمدُ ربى بمحامدَ علـّمنيها ربى ثمَّ اشفعُ فيحدّ لى حدًّا فادخلهمُ الجنةَ ثمَّ أرجع فإذَا رأيتُ ربى وقعتُ ساجداً فيدعُنى ما شاءَ اللهُ أنْ يدعنى ثمْ يقالُ ارفعْ محمدُ قلْ يسمعْ وسلْ تعطهْ واشفعْ تشفعْ فأحمدُ ربى بمحامدَ علـّمنيها ثمَّ أشفعُ فيحدُّ لى حدًّا فأدخلهمُ الجنةَ ثمَّ أرجع فأقولُ يارب ما بقىَ فى النارِ إلاَّ منْ حبسهُ القرآنُ ووجبَ عليه الخلودُ قال النبىُّ صلىَ اللهُ عليهِ وسلم يخرجُ منَ النارِ منْ قال لا إلهَ إلاَّ اللهُ وكانَ فى قلبهِ منَ الخيرِ ما يزنُ شعيرة ثمَّ يخرجُ منَ النارِ منْ قال لا إلهَ إلا الله وكانَ فى قلبهِ منَ الخيرِ مايزنُ برةً ثم يخرجُ منَ النارِ منْ قال لا إلهَ إلا اللهُ وكانَ فى قلبهِ ما يزنُ منَ الخيرِ ذرةً . (البخارى) .

« يجمع الله المؤمنين » يتناول كل المؤمنين من الأمم الماضية .

« كذلك » أى مثل الجمع الذى نحن عليه .

« لو استشفعنا » كلمه لو للتمنى .

« يريحنا » من الإراحة .

« من مكاننا هذا » أى من الموقف بأن يحاسبوا ويخلصوا من حر الشمس والغموم والكروب وسائر الأهوال مما لا يطيقون ولا يحملون .

« أما ترى الناس » أى فيما هم فيه ؟ .

« شفع » أمر من التشفيع وهو قبول الشفاعة .

« لست هناك » أى ليس لى هذه المرتبة والمنزلة .

« خطيئته التى أصاب » هى أكل الشجرة .

« فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » مفهومه ان آدم عليه السلام ليس برسول وأجاب الكرمانى بأنه لم يكن للأرض أهل وقت آدم . فإن قيل لما تناسل

منه ولده وجب أن يكون رسولا إليهم قيل لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض علمه الله أحكام دينه وما يلزمه من طاعة ربه ولما حدث ولده بعده حملهم على دينه وما هو عليه من شريعة ربه كما أن الواحد منا إذا ولد له يحمله على سنته وطريقته ولا يستحق بذلك أن يسمى رسولا وإنما سمى نوح رسولا لأنه بعث إلى قوم كفار ليدعوهم إلى الإيمان .

« ويذكر خطيئته التى أصاب » وهى دعوته (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) .

« خطاياه » وخطايا إبراهيم عليه السلام كذباته الثلاث (إنى سقيم) و (بل فعله كبيرهم) و (انها أختى) أى سارة عليها السلام .

« وكلمته » لوجوده بمجرد قول كن .

« وروحه » انفخ الروح فى مريم عليها السلام .

« فيدعنى » أى يتركنى .

« ارفع » أى رأسك يا محمد .

« واشفع تشفع » أى تقبل شفاعتك .

« فيحد لى حداً » أى يعين لى قوما مخصوصين للتخليص وذلك إما بتعيين ذواتهم وإما ببيان صفاتهم .

« إلا من حبسه القرآن » يعنى من حكم الله فى القرآن بخلوده وهم الكفار قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

قيل أول الحديث يشعر بأن هـــذه الشفاعة فى العرصات لخلاص جميع أهل الموقف من أهواله وآخره يدل على أنها للتخليص من النار وأجيب بأن هذه شفاعات متعددة فالأولى لأهوال الموقف .

« من الخير » من الإيمان .

« ما يزن » ما يعدل .

خاتمة

فى مبحثين

المبحث الأول — هل كان إبليس من الجن أو من الملائكة ؟

العلماء فريقان يختصمان فى أمر إبليس .

فريق يذهب إلى أنه كان من الجن ويحتج بالآتى :

١ - قوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .

٢ - صدور المعصية عن إبليس والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم .

٣ - استكباره وإبائه السجود والملائكة لا تستكبر ولا تأبى الطاعة .

وفريق يذهب إلى أنه كان من الملائكة ويحتج بالآتى :

١ - أنه استثنى من بين الملائكة ، ومعنى هذا أنه كان ملاكا .

٢ - أن الذى دفعه إلى الكبر علو مكانته بين الملائكة فوقع فى نفسه أنه خير منهم ومن آدم .

٣ - أن كونه من الملائكة وعصى يستلزم عقابه عقابا شديداً لأنه أتى شيئا يناقض كل المناقضة طبيعة الملائكة ، أما كونه من الجن وعصى فلا يستلزم كل هذه العقوبة واللعنة التى نزلت عليه ، لأن صدور الشىء من معدنه لا يستغرب .

هذه هى حجج الفريقين ، ويبدو لى أن الحق مع الفريق الثانى القائل بأن إبليس كان من الملائكة وذلك لعدة أمور :

١ - أن جميع آيات القرآن ناطقة باستثنائه من بين الملائكة أجمعين ، وهذا يؤيد كونه من الملائكة .

٢ ـ أما قوله سبحانه «كان من الجن» فقد أوّلها بعضهم بأنها بمعنى كان من الملائكة المقربين وأن الجن هنا بمعنى الملائكة الذين لا يراهم غيرهم من الملائكة لشدة قربهم من الله . أو بمعنى صار من الجن بعد معصيته .

٣ ـ أما احتجاجهم بأن إبليس خلق من نار والملائكة خلقت من نور ، فهذا ليس بحجة لأن النور من النار والنار أصل للنور .

٤ ـ وأما صدور المعصية عنه وهذا ينافى طبيعة الملائكة فليس بحجة كذلك ، لأنه وإن كانت الطاعة المطلقة أصل فى صفات الملائكة إلا أن ذلك لا يمنع أن تصدر المعصية عن أحدهم إذا أراد الله ذلك . كما أن توالد البشر عن طريق الذكر والأنثى أصل فى الإنسان ، ولكن ذلك لم يمنع من خرق هذه القاعدة فى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب .

٥ ـ وأما استكباره وإباؤه السجود فلا غرابة فيه بعد أن قام بنفسه أنه خير من آدم عليه السلام ، عقب ظنه أنه خير من الملائكة .

تلك بعض أدلة القائلين بأنه كان من الجن والرد عليها .

واعتقادى إن إبليس كان ملاكا ، بل كان من كبار الملائكة ، بل لا يبعد أنه كان من أقرب المقربين منهم ، ومن هنا تنبئ عظمة القصة وكبر المعصية .

والذى يجعلنى أذهب إلى كونه من أئمة الملائكة قوله «أنا خير منه» فهذه الكلمة تدل على شدة إحساسه بخيريته،وأنه يعتقد اعتقاداً لازما أنه خير من الملائكة فكيف لا يكون خيراً من مخلوق من طين ؟ ! . وقد أتاه ذلك الشعور مما كان فيه من قربه من الله ، وما يستتبع ذلك من علم بالله ، وإحاطة بأسرار الملكوت ، وقد ظن تبعاً لذلك أنه أوتى ما لم يؤته أحد من الخلق .

أن الذى يلائم جلال الموقف ويلائم كل هذه اللعائن والمصائب التى صبت على إبليس بعد معصيته ، أن يكون مقامه كبيراً لا صغيراً ، لأن الكبير إذا أخطأ قامت الدنيا وقعدت ، أما الصغير إذا أخطأ فلا أحد يلتفت إليه ، والمشاهد أن الله غضب

غضباً شديداً على إبليس عندما عصى وأبى ، ولعنه لعنة أبديه ، وطرده من الجنة ، وأخرجه من صورة الملائكة وفعل به و فعل ، وذلك كله لمعصية واحدة ، واحدة ليس إلا ، ورغم أن الله من صفاته الرحمة والعفو والمغفرة ، وأنه دائم المغفرة ودائم الرحمة ، فكونه سبحانه يعاقب إبليس بكل هذه العقوبات التى تكفى واحدة منها لعقوبة أمة بأكلها ، يدل ذلك دلالة واضحة على أن إبليس كان مقربا جداً ، وكان ملاكا عظيما جداً ، فكان من أقبح القبح أن تصدر عنه مثل هذه المعصية فى مثل هذا المقام .

أن الحوار الذى قام بين الله سبحانه وبين إبليس عليه اللعنة ، كان حواراً مباشراً وبغير حجاب وبغير واسطة . وذلك المقـــام لا ينبغى للجن لأن الجن فى مرتبة دون ذلك . ولكنه ينبغى للملائكة وهم الذين تسمح رتبتهم بمخاطبتهم مباشرة بل أن من الملائكة من لا يسمح مقامه بالخطاب المباشر ، ولا يعلم بالشىء إلا عن طريق كبار الملائكة . فكون إبليس يحاور الله تعالى ويحاوره سبحانه هذا الحوار الطويل ، يدل دلالة قوية على أنه كان ملاكا كبيرا ،وكان يعلم من الله ما لا يعلم كثير سواه من الملائكة ، حتى أنه اعتقد أن من حقه أن يناقش الله الحساب ويجادله فى قضائه الذى قضى .

أن أسلوب الحوار أسلوب الشخص العليم بالسياسة العليا للكون ، المدرك لصفات الله ، المقر بعظمته وجبروته ، وأنه الفعال لما يريد . انظر إلى قول اللعين « رب بما أغويتنى » وقوله « فبعزتك » وقوله « أنظرنى » كل ذلك يحمل فى طياته ما يدل على أنه يعلم علم اليقين أن الأمر كله بيد الله ، وأن الله عزيز لا يقدر أحد على دفع ما يريد ، وأن الله هو الذى يسأل وتطلب منه المطالب لا أحد سواه سبحانه . وهذه معلومات تدل على قدم اللعين فى العلم .

أن ما عليه إبليس من اتقان لصنعته فى الدنيا ، صنعة الإضلال والإفساد والتزيين ، يدل على أنه عليم غاية العلم ، لأن إضلال بنى آدم أجمعين شىء ليس بالهين

فكون إبليس يفعل ذلك كله ويحسن هذه الصناعة وترث ذريته عنه ذلك ، أدل الدلائل على أنه كان صاحب عقل كبير ، وأن هذا العقل عقل ملاك كبير تحول إلى الشر عندما أخرجه الله من هيئة الملائكة إلى هيئة الشياطين .

أن إبليس مسخ من ملك إلى شيطان ، ليكون أصلا لهذا الجنس المسمى بالجن فيما بعد، وأن الملاحظ أن من ذريته المؤمن والكافر ،كما أن من ذرية آدم المؤمن والكافر كذلك ، وأن قصة اختبار بنى آدم تستلزم وجود ما يدفع إلى الشر ويزين الشر ويوسوس بالشر ، وهذا هو عمل إبليس وذريته فى الإنسان .

ذلك هو المبحث الأول من الخاتمة ، وفيه بعض ما أرى من شأن إبليس وهل كان من الجن أو من الملائكة ، والله أعلم بالحق وهو يهدى السبيل .

المبحث الثانى

هل الجنة التى أخرج منها آدم هى جنة الخلد أو جنة فى الأرض ؟

ذهب فريق من العلماء إلى أن الجنة التى خلق فيها آدم وأخرج منها هى جنة فى الأرض وأتوا على ذلك بعشرات الأدلة وقالوا وقالوا مما يكاد يلزم الإنسان بالاعتقاد بأن الجنة التى أخرج منها آدم هى جنة كانت فى الكرة الأرضية .

والحق الذى أعتقده، ويميل إليه قلبى ، وذهبت إليه فى هذا الكتاب ، والذى عندى من الأدلة عليه ما أسوقه إن شاء الله ، والذى يقول به كثير من أهل الحق ، أن الجنة التى أخرج منها آدم وحواء وإبليس ، هى جنة المأوى ، هى جنه الخلد التى وعد المتقون ، وأنها كانت قبل خلق آدم وحواء ، وأنها عند الله ،وأن القصة جرت فيها ، والإخراج كان منها ، وأنها هى الوعد الذى يدخره الله لمن أطاعه من بنى آدم وبنى الجن ، وأن القصة بذلك تصبح طبيعية بديهية ، وأن ذلك مايشير إليه الكتاب والسنة وصحيح الآثار .

هذا وقد راجعت جميع النصوص الخاصة بهذا الكتاب ، فى هذا الموضوع بالذات ، وأمسكت بالآيات والأحاديث ، آية آية ، وحديثا حديثا ، بل كلمة كلمة ، وجعلت أتأملها وأفكر فيها ، واستنبط من شروحها ومعانيها ، فتبين لى تماماً أن الجنة هى جنة الخلد وليست جنة كانت فى الأرض ، ووجدت الأمر يمضى سهلا مفهوما على هذا الاعتبار ، ولاحظت أن النصوص تزداد إشراقا ، ونوراً إذا ذهبنا بها ذلك المذهب .

هذا وإليك الأدلة :

١ ـ اعتبر القرآن الكريم خروج آدم وحواء من الجنة ، مصيبة وأى مصيبة نزلت بهما ، وأنهما بذلك فقدا نعيما ياله من نعيم ، وعبر عن ذلك بقوله « فأخرجهما مما كانا فيه » وأبهم ما كانا فيه للإشعار بعظمة ما كانا فيه ، فهل خروج آدم وزوجه من حديقة هى مجرد حديقة فى الأرض ، إلى كل مكان من الأرض ، يعتبر نكبة ومصيبة وخسران ؟ الأمر على العكس من ذلك كله ، فعندى أن الخروج من حديقة إلى كل الأرض يعتبر رحمة ونعمة من الله ، لأنه خروج من مكان محدود إلى مكان لا محدود ، من شىء مألوف إلى شىء متغير ، من السجن إلى الحرية . فلو أنك جئت بإنسان ووضعته فى أجمل حديقة فى الدنيا وحرمت عليه الخروج منها ، لكره ذلك ورغب فى الخروج منها إلى حيث يجد حرية الحركة وحرية الانتقال والعمل . وهذا الدليل وحده يكفى لانهيار حجة القائلين بأنها كانت جنة فى الدنيا . ولست أدرى كيف غاب عنهم مثل هذا الأمر الساطع ؟ ! . وعلى العكس من ذلك إذا ذهبنا إلى أن الجنة كانت هى جنة الخلد ، فإن المصيبة حينئذ تصبح حقيقة ، والداهية تصبح دهياء ، والخسران على هذا تاما كاملا . فالخروج من جنة عرضها السماوات والأرض إلى أرض مهما بلغ اتساعها فلن يبلغ شيئا من اتساع الجنة ، هو الخروج من الحرية إلى السجن حقا ، ومن السعة إلى الضيق صدقا ، ومن الرحمة إلى البلاء . والخروج من حياة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وما لا خطر على قلب بشر ، إلى حياة كلها

آلام ومكاره ولا يكاد يجد الإنسان فيها لقمة العيش إلا بشق الأنفس ، لهو الخروج من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن الهناء إلى البلاء .. والخروج من رضوان الله ورحمة الله إلى دار الشقاء والبلاء لهو البلاء المبين والداء الدفين والأمر الذى يعتبر عقوبة وهبوطا كما سماه الكتاب . أرأيت إذا ، كيف أن الأمر يبدو جليا إذا قلنا بأنها جنة الخلد ويبدو ملتويا خفيا غير طبيعى إذا قلنا أنها جنة فى الأرض؟!

٢ ـ أن المعلوم أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم أجمعين ، فلو كان آدم فى جنة فى الأرض ، فهل هذه الأرض الصغـــيرة تصلح لاجتماع الملائكة أجمعين وسجودهم ،ولمثل هذا الحدث العظيم ؟! كلا ثم كلا ، فإن الأرض أعجز عن ذلك ، ولا تحتمل مثل ذلك ، وقد ثبت أن جبريل عليه السلام وحده ، حين ظهر للنبى صلى الله عليه وسلم سد ما بين الأفق مع أنه لم ينشر من أجنحته إلا قليلا : فكيف إذا اجتمع الملائكة أجمعون كبارهم وصغارهم ، وهم الذين أطت منهم السماء وحق لها أن تئط ، كيف إذا اجتمعوا هؤلاء جميعاً وهم الذين يملأون السماوات والجنة والنار وغير ذلك مما لا يعلم إلا الله ، كيف إذا اجتمعوا لا فى الكرة الأرضية برغم تفاهتها بالنسبة للكون ، ولكن فى مكان صغير من هذه الكرة الأرضية ، فى رقعة محدودة هى الحديقة التى كانت فى الأرض على ما يزعم الذاهبون إلى هذا الرأى ؟ !! .

ألا يبدو الأمر فى هذه الحالة مستحيلا وغير ممكن وغير طبيعى ؟ نعم والطبيعى والمعقول والذى هو حق أن يكون ذلك الحدث العظيم فى الجنة التى هى جنة الخلد ، لأنها بلغت من السعة أن سقفها عرش الرحمن ، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما يضع أحدنا أصبعه فى اليم فلننظر بم يرجع ، وأنها بلغت من السعة أن الله يدخل أهل الجنة فيها ويعطى كلا منهم ما يشاء ويزيده ما شاء سبحانه من فضله ويبقى فى الجنة بعد ذلك مساحات ومساحات فيخلق الله لها خلقا ويدخلهم إياها من فضله . ذلك هو المكان الذى يصلح لذلك الحدث العظيم . ويسع مثل ذلك الأمر الكبير ، ولئن اجتمع الملائكة أجمعون فيها وأوقعوا السجود لوسعتهم ووسعت مثلهم معهم . ثم الأمر

الطبيعى والبديهى أن يسجد الملائكة فى مكانهم ومسكنهم الذى هم فيه دائما وهو السماء لا الأرض ، وأن ينقل المسجود له وهو فرد واحد إلى مكان الساجدين وهم مالا يحصى عدداً ولا يحاط به علما ، وأن يقع ذلك فى الملأ الأعلى لا فى هذه الأرض التى لم يكن فيها غير الحيوانات والنباتات . أرأيت بعد هذا كذلك كيف أن الجنة التى وقع فيها السجود كانت جنة المأوى لا حديقة فى الأرض ؟ . واست أدرى كيف غاب مثل هذا عن الذين ذهبوا إلى غير هذا الرأى ؟ ! ! .

٣ ـ أن إبليس أخرج منها عقابا وإهانة ، وانه اعتبر خروجه منها مصيبة نزلت به استوجبت أن ينتقم من آدم وزوجه وذريته ، وأنه حقد لذلك حقداً شديداً على آدم ، وظل يتحين الفرصة ليخرجه منها كما كان هو سبب خروجه منها ، فهل تصلح هذه الحديقة فى الأرض لأن يحزن إبليس أشد الحزن على خروجه منها ويتألم أشد الألم لفراقه عنها ، ويعمل كل العمل للانتقام من آدم بسببها ؟ . الحق أن لا ، والحق أنها إن كانت هذه التى فى الأرض ، فإن خروج إبليس منها تكريم لا تعذيب ، ورحمة لا لعنة ، وسعة لا ضيق ، وخير لا شر . لأن إبليس يرحب أن يخرج من ذلك السجن إلى سعة الأرض ، ثم ماذا يستفيد إبليس من حديقة لا تنفعه فى شىء ولا تضره فى شىء إن هو خرج منها ؟ . ولكن الحق أن خروجه من جنة الخلد هو الخروج ، لأن معنى ذلك أنه لم يعد أهلا للبقاء فى دار الفضل والقرب من الله ، بل أصبح من أهل الطرد والبعد ، فليخرج إذا منها إلى الأرض البعيدة الدنيئة . ثم إنها إن كانت دار الخلد وجنة النعيم لكانت هى التى تستحق أن يعمل إبليس ليكيد لآدم بإخراجه منها ، وهذا هو الانتقام الذى يسعى إليه إبليس ليشفى صدره وغله ، لأنه بذلك سيخرج آدم من سعادة إلى شقاء ، ونعيم إلى آلام ، ومن سعة إلى ضيق أما إذا كان الأمر أن يخرجه من جنة الأرض فقد أسدى بذلك جميلا إلى آدم ، وليس إبليس بذاك الهين الساذج ، بل هو عدو مبين مكين . أرأيت إذا أن الجنة هى جنة الخلد لا جنة فى الأرض ؟ .

هذا وكان فى رأسى أدلة أخرى غير ذلك ؛ نسيتها الآن ولعل إبليس اللعين هو الذى أنسانيها ! .

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟

فيه عجائب .. وغرائب : « وجعلنـــا في ذريتـه النبوه والكتـــاب » ..

فيه اشاعات .. انوار .. مقامه ..مقام : « إذ قال له ربه أسلم .. قال : أسلمت لرب العالمين » ..

فيه انطلاقات النور .. من مقامه .. مقام : « أني اذبحك .. قال : يا أبت افعل ما تؤمر .. » !!

فيه .. تفصيل .. وتحليل ..

وفيه .. وفيه .. وفيه .. ولن تعلم ما فيه .. حتى تقرأما فيه .

الثمن : ٣٥٠ ق. ل. او ما يعادلها